This book is provided in digital form with the permission of the rightsholder as part of a Google project to make the world's books discoverable online.

The rightsholder has graciously given you the freedom to download all pages of this book. No additional commercial or other uses have been granted.

Please note that all copyrights remain reserved.

About Google Books

Google's mission is to organize the world's information and to make it universally accessible and useful. Google Books helps readers discover the world's books while helping authors and publishers reach new audiences. You can search through the full text of this book on the web at http://books.google.com/

الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني

العِبَادَة

دِراسة منهجية شامِلة في ضوءِ الكتاب والسُّنّة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع

العِبَادَة

دراسة منهجية شاملة في ضوء الكتاب والسنة

الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م

حقوق الطبع والنشر محفوظة

العِبَادَة

دِرَاسة منهجية شاملة في ضوء الكتاب والسُّنَّة

الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة ص.ب : ١٦١ غورية . ت : ٩٣٥٦٤٤
حلب ص.ب : ١٨٩٣ . هـ : ١٧٧٦٤
بيروت ص.ب : ١٣٥٣٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله الذي تعبد العباد بشرائعه ، فأنقذهم بها من الظلمات إلى النور ، وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل....

والصلاة والسلام على خير العباد وسيد المتقين سيدنا محمد ﷺ القائل : « أفلا أكون عبداً شكوراً » [1] .

ورضي الله عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم ونهج نهجهم إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن من أخطر الظواهر الاجتماعية في حياة الناس ، أن تناط بالمرء وظيفة هامة ، وهو يجهل حقيقتها أو يسيء فهمها ، فتراه يخبط في الحياة خبط عشواء ، لايقوم بوظيفته على الوجه المطلوب ، ولا يصل إليه مردود عمله على الرغم من تعبه ونصبه ...

وإذا كانت هذه الظاهرة عجيبة غريبة ، فإنها مع غرابتها تتجلى في واقع كثير من المسلمين اليوم ، حيث انتشرت في حياتهم ، واستشرت في خاصتهم وعامتهم ، حتى كادت تتحول إلى ظاهرة طَبَعِيّة يستشعر صاحبها خطرها ، ولا تثير في المجتمع الغرابة من أصحابها .

ذلك أن الله سبحانه وتعالى ، امتن على عباده بالخلق ، واختصهم بوظيفة العبادة تكريماً لهم وتشريفاً .

---

(١) صحيح البخاري : ٢ : ٤٤ ط دار الفكر .

قال تعالى : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ، وحمَلناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفَضّلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ [١].

وقال سبحانه : ﴿ إنا عَرَضنا الأمانة على السمواتِ والأرضِ والجبالِ ، فأَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [٢].

وقال أيضاً : ﴿ وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يُطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ [٣].

فإذا بكثير من الناس جهل أو تجاهل هذه الوظيفة ، فانحطوا بأنفسهم عن مستوى التكريم والتشريف ، وانحدروا إلى مستوى الحيوانات والبهائم ، فخسروا دنياهم وأخراهم ...

قال تعالى : ﴿ والذين كفروا يَتَمَتَّعون ويأكلونَ كما تأكل الأنعام ، والنار مَثْوى لهم ﴾ [٤].

وجاءت رسل الله عز وجل تترى ، تؤكد للناس هذه الحقيقة ، وتبين لهم تلك الوظيفة ، وتنتشلهم من مهاوي الضلال والخسران ...

﴿ ولقد بَعَثْنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجْتَنِبُوا الطاغوت ﴾ [٥].

---

(١) ٧٠ ـ الإسراء .
(٢) ٧٢ ـ الأحزاب .
(٣) ٥٦ ـ ٥٨ الذاريات .
(٤) ١٢ محمد ﷺ .
(٥) ٣٦ النحل .

فخاض الناس مع شياطينهم معركة العبادة ، فمن قويٍّ منتصر ، إلى ضعيفٍ منهزم ، واستمرت معركتهم هذه سجالاً على مختلف العصور والأزمان ، وذهب ضحيتها كثير من الناس ، وكتاب الله يناديهم :

﴿ ألم أعهد إليكم يا بَني آدمَ أن لا تعبُدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبُدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضَلَّ منكم جِبِلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾ [1] .

واليوم ، ونحن نلحظ هذه الظاهرة الخطيرة في حياة الناس ، ونلمس آثارها في سلوكنا ، لابد لنا من عودة صادقة إلى وظيفتنا ، ومن جهود مكثفة لتصحيح مسارنا ، ولابد أن تتوجه هذه الجهود أولاً وقبل كل شيء ، إلى إنقاذ المسلمين من تخبطهم ، ليحتلوا مكانتهم في هذه الحياة ، ويقوموا بوظيفتهم حق القيام .

إنهم اليوم في حاجة ليتعرفوا على هذه الوظيفة السامية التي اختصهم الله بها ، فتنجلي بذلك حقيقتها ، ويستشعروا بحاجتهم إليها وارتباطهم بها .

إنهم في حاجة ليلمسوا آثارها ، ويعرفوا فضلها ، ويوقنوا بخيرها ومردودها على حياتهم أفراداً و مجتمعات .

ولابد لتحقيق هذه الاحتياجات من جهود جادة ، نظرية وعملية ، وعلى مختلف المستويات ...

ولابد أن تتضافر جهود الدعاة والمربين ، وجهود المؤسسات التعليمية والحكومية على القيام بهذا الواجب ، لإنقاذ الأمة مما وصلت إليه من ضياع وانحراف عن الجادة التي رسمها الله لها .

---

(١) ٦٠ ـ ٦٢ يس .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشيد بجهود قسم الثقافة الإسلامية ، بكلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، حيث أَوْلى هذا القسم مادة العبادة جانباً من دراساته ، وجَعَلها جزءاً من مناهج الدراسة فيه .

وقد كانت كتابتي لهذا البحث في الأصل حسنةً من حسناته ، ورغبة من رغباته .

حيث استقدمني زائراً عام ١٤٠٠ ـ ١٤٠١ هـ طالباً مني أن أحاضر حول العبادة في الإسلام لطلاب الدراسات العليا في القسم ، فأكبرت فيه هذا الاهتمام بأمرالعبادة ، في وقت انصرفت فيه همم الباحثين والدارسين عن مثل هذه الدراسات .

فكان هذا البحث في أصله مادة تخصصية دراسية ، حاضرت فيها في ذلك القسم على فترتين قصيرتين لسنتين دراسيتين .

ثم تناولته بشيء من التبسيط والتفصيل والتنقيح ، ليصلح كتاباً عاماً للنشر ، عسى أن تعم فائدته جميع المسلمين ، وبخاصة المهتمين منهم بهذه الجوانب .

وقد اشتملت دراستي للعبادة في الإسلام على : مقدمه ، وموضوع ، وخاتمة ، وملحق .

أما المقدمة : فتناولت فيها ثلاث نقاط :

(أ) معنى العبادة لغة وشرعاً .
(ب) نشأة العبادة وتاريخها .
(جـ) الدوافع إلى العبادة .

أما الموضوع : فتناولت فيه خمس نقاط :

(أ) طبيعة العبادة في الإسلام .
(ب) ضرورتها والحاجة إليها .

(جـ) أقسامها .

(د) خصائصها .

(هـ) وظيفتها .

أما الخاتمة : فتناولت فيها نقطتين :

(أ) واقع العبادة في حياة الناس .

(ب) سبيل علاج هذا الواقع .

وأما الملحق :فجعلته دراسة تطبيقية لعبادة « الصلاة » على ضوء الدراسة العامة السابقة .

هذا وأرجو أن أكون قد ساهمت بهذا البحث في محاولة الإصلاح ، واشتركت في معالجة الظاهرة الخطيرة التي أشرت إليها في هذه المقدمة وهي : انصراف المسلمين عن وظيفتهم الأساسية ، وجهلهم بها .

وحبذا لو تضافرت الدراسات العلمية والعملية على مثل هذه البحوث فتولى عناية خاصة ، يتوجه فيها الأخوة الدارسون في الثقافة الإسلامية والدراسات الدعوية إلى تسجيل مباحث ورسائل في مثل هذه الموضوعات ، يتناولون بشكل مفصل طبيعة العبادة في الإسلام ، وخصائصها ووظائفها ، ويعالجون واقعها ، عسى أن تساهم مجموع تلك البحوث في معالجة هذا الواقع المرير .

أسأل الله عز وجل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وأن يرزقنا السداد في القول والعمل ، والحمد لله رب العالمين .

المدينة المنورة ٢٠ صفر ١٤٠٣هـ .

المقـدمـة

وتشتمل على ثلاث نقاط

(أ) معنى العبادة لغة وشرعاً .

(ب) نشأة العبادة وتاريخها .

(جـ) الدوافع إلى العبادة .

(أ) معنى العبادة لغة وشرعاً :

العبادة في اللغة : مصدر عَبَدَ

جاء في القاموس المحيط :« والعبدية ، والعبودية ، والعبودة ، والعبادة : الطاعة » .

وقال في لسان العرب : « أصل العبودية : الخضوع والتذلل .. وجعل بعضهم العبادة لله ، بخلاف العبديّة وغيرها ، فهي تجعل لله وللمخلوقين .. » .

وقال الراغب الأصفهاني في المفردات :

« العبودية : إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها لأنها غايةُ التذلل ، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال ، وهو الله تعالى ، ولهذا قال : ﴿ **أن لا تعبدوا إلا إياه** ﴾ [1] ، قال :

والعبادةُ ضربان : عبادةٌ بالتسخير وهو كما ذكرناه في السجود ، وعبادةٌ بالاختيار ، وهي : لذوي النطق ، وهي المأمور بها في نحو قوله : ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ ، ﴿ **واعبدوا الله** ﴾ . والعبدُ : يقال على أربعة أضرب :

الأول : عبدٌ بحكم الشرع ، وهو الإنسان الذي يَصحُّ بيعُه وابتياعه ، نحو : « العبدُ بالعبد ، وعبداً مملوكاً لا يقدر على شيء » .

الثاني : عبدٌ بالإيجاد ، وذلك ليس إلا لله ، و إياه قصد بقوله : ﴿ **إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً** ﴾ [2] .

والثالث : عبدٌ بالعبادَة والخدمة ، والناس في هذا ضربان :

عبد لله مخلصاً ، وهو المقصود بقوله ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذْ نادى ربه أني مسني الشيطان بِنُصْبٍ وعذاب** ﴾ [3] وذكر نحوها من آيات ...

---

(١) ٢٣ - الإسراء

(٢) ٩٣ - مريم

(٣) ٤١ - ص

وعبدٌ للدنيا وأعراضها ، وهو : المعتكف على خدمتها ومراعاتها ، و إياه قصد النبي ﷺ بقوله « تَعِسَ عبد الدرهم ، تَعِسَ عبد الدينار » ..

ثم قال : وعلى هذا النحو يَصحُّ أن يُقَال :

« ليس كل إنسان عبداً لله » ، فإن العبد على هذا بمعنى (العابد) ، لكن العبدُ أبلغُ من العابد ، والناس كلهم عباد الله ، بل الأشياء كلها كذلك ، لكن بعضها بالتسخير ، و بعضها بالاختيار ...

ثم قال :

وجمعُ العبد الذي هو مُسْتَرقٌ (عبيد) ، وقيل : عِبدًا ، وجمع العبد الذي هو العابد : (عباد) .

فالعبيد إذا أضيف إلى الله أعم من العباد ، لهذا قال : ﴿ وما أنا بظلّام للعبيد ﴾[1] فنبَّهَ أنه لا يظلم من يختصُّ بعبادته ومن انتسب إلى غيره من الذين تَسَمَّوا : بعبد الشمس ، وعبد اللات ونحو ذلك ...

قال : و يقال طر يق مُعَبَّدٌ أي : مذلل بالوطء ، وبعيرٌ معبدٌ : مُذلل بالقطران ، وعَبَّدت فلاناً إذا ذللته ، وإذا اتخذته عبداً ، قال تعالى : ﴿ أن عَبَّدتَ بني إسرائيل ﴾[2] ا هـ .

وتوصل الأستاذ المودودي رَحمه الله ـ في تحليله للاشتقاق اللغوي لمادة « عَبَدَ » إلى أن لها في اللغة عدة معانٍ :

١ ـ العبدُ : المملوكُ خلاف الحر .
٢ ـ والعبادةُ : الطاعة مع الخضوع .

---

(١) ٢٩ - قٓ
(٢) ٢٢ - الشعراء

٣ ـ عَبَدَه عبادةً ومعبداً ومعبدة : تألّه له ، والتعبد التنسك .
٤ ـ وعَبَد به : لزمه فلم يفارقه .
٥ ـ ماعبدك عني : أي ما حَبَسكَ .

ثم قال : و يتضح من هذا الشرح اللغوي لمادة عَبَدَ : أن مفهومها الأساسي : أن يذعن المرء لعلاء أحد وغلبته ، ثم ينزلَ له عن حريته واستقلاله ، و يتركَ إزاءه كل المقاومة والعصيان و ينقاد له انقياداً .

وهذه هي حقيقة العبدية والعبودية ، ومن ذلك : أن أول ما يتمثل في ذهن العربي لمجرد سماعه كلمة (العبد) ، و(العبادة) هو : تصور العبدية والعبودية ، و بما أن وظيفة العبد الحقيقية هي طاعة سيده وامتثالُ أوامره ، فحتماً يَتْبَعُه تصور الإطاعة .

ثم إذا كان العبد لم يقف به الأمر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعةً وتذللاً ، بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ، و يعترف بعلو شأنه ، وكان قلبهُ مفعماً بعواطف الشكر والامتنان على نعمه وأياديه ، فإنه يُبالغ في تمجيده وتعظيمه ، و يَتفنّنُ في إبداء الشكر على آلائه ، وفي أداء شعائر العبدية له ، وكل ذلك اسمه . (التأله والتنسك) .

وهذا التصور لا ينضم إلى معاني العبديّة إلا إذا كان العبد لا يَخْضعُ لسيده رأسه فحسب ، بل يُخضع معه قلبه أيضاً .

وأما المفهومان الباقيان ، فإنهما تصوران فرعيان لا أصليان للعبدية[١] . .ثم أشار الأستاذ المودودي ـ رحمه الله ـ إلى استعمال القرآن الكريم لكلمة العبادة في عددٍ من هذه المعاني فقال :

« و إذا رجعنا إلى القرآن بعد هذا التحقيق اللغوي : رأينا أن كلمة (العبادة) قد وردت فيه غالباً في المعاني الثلاثة الأولى ، ففي بعض المواضع قد أريد بها المعنيان ، الأول والثاني معاً ، يريد معنى العبودية والإطاعة .

---

(١) انظر المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم ٩٦ ـ ٩٧ .

وفي الأخرى : المعنى الثاني وحده - أي الإطاعة -

وفي الثالثة : المعنى الثالث فحسب - أي التأله -

كما قد استعملت في مواضع أخرى بمعانيها الثلاثة في آنٍ واحد ، وضرب على ذلك أمثلة[1] . هذا عن معنى العبادة في اللغة .

أما العبادة في الشرع والاصطلاح : فتطلق و يراد بها معنيان عام وخاص :

(أ) **فالعبادةُ بالمعنى العام هي** : (عملُ العبد الإرادي الموافقُ لطلب المعبود) فإذا كان عمل الزراع زراعة ، وعمل الصانع صناعة ، وعمل التاجر تجارة فإن عمل العبد (عبادة) .

ومن هنا : كانت العبادة بالمعنى العام تشمل جميع أعمال المرء الإرادية ، قلبية كانت أو سلوكية .

فإذا كان عملهُ وفق طلب المعبود ، كان عمله طاعة ، أو عملاً صالحاً ، و إذا كان عمله مخالفاً طلب المعبود ، كان عمله معصية ، أو عملاً غير صالح ..

وقيدنا الأعمال بـ « الإرادية » لتخرج أعماله العادية الجبلّية التي لا يلحظ معها المرء موافقتها لأمر المعبود ونهيه ...

وهذا المعنى العام هو الذي أشار إليه الرسول ﷺ في تعريفه العبادة لعدي ابن حاتم رضي الله عنه لما قرأ أمامه قول الله عز وجل :

---

(١) انظر المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم من ٩٨ - ١١٣ .

﴿ اتخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[١] .

فقال عدي : إنهم لم يعبدوهم ، فقال ﷺ : « بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتّبعوهم فذلك عبادتهم إياهم[٢] .». الحديث .

وهو المراد بتعريف الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ للعبادة . حيث يقول : « العبادة : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة،فالصلاة والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين والبهائم ،والدعاء والذكر والقراءة ، وأمثال ذلك : من العبادة .. ... » .

ثم يقول :

« وكذلك حب الله ورسوله ، وخشيةُ الله والإنابةُ إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك هي من العبادة لله[٣] ... » .

وهو المراد بتعريف الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ للعبادة بقوله :« هي الدينونة الشاملة لله وحده في كل شيء من شئون الدنيا والآخرة[٤] ... » .

---

(١) ٣١ : التوبة .

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما ، انظر تفسير ابن كثير ٤ :٧٧ .

(٣) انظر كتاب العبودية : ٣٨ .

(٤) في ظلال القرآن ٤ : ١٩٠٢ .

(ب) والعبادة بالمعنى الخاص : هي : (الأعمال الخاصة المحددة التي كُلّف العبدُ بالقيام بها تمريناً عملياً له على الخضوع الكامل) ، وهي ما يعبر عنه « بالشعائر التعبدية » كالأركان الإسلامية الخمسة : الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج ، وما يُلحق بها من شعائر : كالجهاد والأذان ونحوهما مما يدخل في نطاق المعنى العام ، وإنما خُصت بمعنى خاصٍ لأهميتها من جهة ، ولإشعارها الآخرين بعبودية المرء القائم بها من جهة أخرى ....

ومَثَلُها مثلُ كثير من أعمال التدريب العسكري التي يمارسها القادة مع الجنود في حياتهم العسكرية ، كشعار وعلامة على خضوع الجندي ، وطاعته لقائده عند الحاجة ...

ومن هنا : كانت العبادة بالمعنى الخاص تحمل معنى الغاية والوسيلة في آنٍ واحد ، فهي غايةٌ في حد ذاتها لأنها قربةٌ وطاعةٌ لله ، وخضوع عملي له .

وهي وسيلة من جهة أخرى ،نظراً لما تحتويه من تمرين على الخضوع ، وإشعارٍ به .

ولطالما تردد كثير من الكتاب والباحثين في إلحاق الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام والزكاة والحج بإحدى الجهتين ، فمنهم من يعتبرها غاية ، ومنهم من يراها وسيلة ، وهي في الحقيقة تحمل المعنيين معاً في وقت واحد ... خلافاً للعبادة بمعناها العام ، فإن الغالب عليها كونها غاية في حد ذاتها ، وإن كانت تحمل معنى الوسيلة بما تسببه للعبد من رضى الله ، وتجعله مستحقاً لثوابه .

وقد أحسن الأستاذ أبو الحسن الندوي ـ حفظه الله - في لفت النظر إلى الأثر النفسي السيء الذي يتركه اعتبار العبادات وسائل مجردة لا غايات ، وذلك في معرض مناقشته لأسلوب الأستاذ المودودي ـ رحمه الله تعالى ـ في ذلك [1]

---

(١) انظر كتاب « التفسير السياسي للإسلام » للأستاذ الندوي ١٠٩ ـ ١١٧ طبع بمطبعة ندوة العلماء في الهند عام ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م

وإلى المعنى الخاص للعبادة أشارت بعض النصوص الشرعية والأحكام الفقهية :

فمن ذلك : جعلُ معظم الشعائر التعبدية أركان بناء الإسلام : ففي الحديث : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان (١) » .

وفي الحديث : « رأس الأمر : الإسلام ، وعموده : الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد (٢) . . . » .

ومن ذلك : إناطة عصمة الدماء والأموال بالقيام بها وأدائها :

ففي الحديث : « أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله تعالى (٣) » .

ومن هنا خصَّ الفقهاء الشعائر بأحكام مشددة ، حتى قرروا قتال أهل البلدة الذين يُجْمعون على ترك شعيرة من الشعائر ، فعن سعيد بن جبير عن عمر رضي الله عنه أنه قال : « لو أن الناس تركوا الحج لقاتلناهم عليه كما نقاتلهم على الصلاة والزكاة (٤) » .

كما جاء عن الإمام محمد بن الحسن ـ رحمه الله ـ في الأذان : « لو اجتمع أهل بلدة على تركه قاتلتهم عليه ، ولو تركه واحد ضربته وحبسته » . وعلل الفقهاء حكم القتل على تركه « بأنه من أعلام الدين ، وأن في تركه استخفافاً ظاهراً به (٥) » .

هذا هو المعنى العام والخاص للعبادة في اصطلاح الشرع ، وقد طرأ عليه أوجه من الخلل والفساد ، سنتعرض لها في هذا البحث إن شاء الله حينَ نتكلم عن واقع العبادة في حياة المسلمين .

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) متفق عليه .

(٤) انظر جامع العلوم والحكم ٨٢

(٥) انظر حاشية ابن عابدين ١ : ٢٥٧

(ب) نشأة العبادة وتاريخها :

اقتضت حكمة الإله الخالق المعبود أن يتخير من مخلوقاته من تؤهله فطرتَه وطبيعةُ خلقه لممارسة العبودية في أكمل صورها وأسمى أشكالها ..

وإذا كان هناك في المخلوقات من سُخّر للعبادة والخضوع تسخيراً ... كالملائكة والجماد والحيوان ﴿ **إنْ كلُّ من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً** ﴾ [١]، فإن كمال العبودية وحقيقتها لاتظهر إلا في الخضوع الإرادي ، والعبادةِ الاختيارية التي لا تتُصور إلا من الثقلين الإنس والجن ...

ومن هنا خلقهما الله عز وجل ، وأوضح الغاية من خلقهما فقال : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ...** ﴾ [٢]

كما أشار الله إلى كبير الفارق بينهما وبين سائر المخلوقات فقال : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبيْنَ أن يحملنها ، وأشفقن منها وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوماً جهولاً** ﴾ [٣] .

يقول العلامة الدهلوي في معرض بيان الحكمة من تكليف الإنسان : « نَبّه الغزالي والبيضاوي وغيرهما على أن المراد بالأمانة في هذه الآية : تَقَلُّدُ عهدة التكليف ، بأن تتعرض ـ أي السموات والأرض والجبال ـ لخطر الثواب والعقاب بالطاعة والمعصية .

وبعرضها عليهن : اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهن .

وبإبائهن : الإباء الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والاستعداد .

---

(١) ٩٣ مريم .

(٢) ٥٦ الذاريات .

(٣) ٧٢ الأحزاب .

وبحمل الإنسان : قابليته واستعداده لها ... »

ثم قال :

« ... أقول : وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [١] : خرج مخرج التعليل ، فإن الظلوم : من لايكون عادلاً ، ومن شأنه أن يعدل ، والجهول : من لا يكون عالماً ، ومن شأنه يعلم .

وغير الآدمي : إما عالم عادل لا يتطرق إليه الظلم والجهل كالملائكة . وإما ليس بعادل ولا عالم ، ولا من شأنه أن يكسبها ، كالبهائم .

وإنما يليق بالتكليف ويستعد له ، من كان له كمال بالفطرة لا بالفعل ..» [٢]

ومن هنا : جاء تعبُّد الله عز وجل للإنسان ، وتكليفه بالشرائع ، وذلك منذ خلق الله آدم عليه السلام أبا البشر ، وزوجه حواء ، وكلفهما ببعض التكاليف ، وتعبدهما ببعض الأوامر والنواهي :

﴿ وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ... » [٣]

فقد اشتملت هذه الآية على أحكام متعددة ، منها : الأوامر والنواهي ، ومنها التخيير .

كما أخذ الله العهد والميثاق على ذريته بالعبادة له ، وأشهدهم على أنفسهم بأنه ربهم ، فأقروا وشهدوا :

---

(١) ٧٢ الأحزاب

(٢) انظر حجة الله البالغة ١ : ٤٠ ـ ٤١ .

(٣) ٣٥ البقرة .

﴿ وإذ أخذ ربُّك من بني آدَم من ظُهورِهم ذُريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾[1] .

ولما أهبط آدم عليه السلام وزوجه إلى الأرض ، أوضح الله لهما أن مدار سعادتهما وسعادة ذريتهما في الخضوع له والاتباع لما جاءهم به ، وأن الضلال والشقاء رهن بترك هديه والإعراض عنه :

﴿ قال اهبطا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم مني هدى فمن اتَّبَع هُدايَ فلا يضلُّ ولايشقى . ومن أعرض عن ذكري ، فإن له معيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليومَ تُنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، وَلَعذابُ الآخرة أشدُّ وأبقى ﴾[2] .

وهنا قام الشيطان بوظيفته بدافع العداوة والحسد ، فَرَصَدَ لبني آدم الطريق ، فأغوى من أغوى وأضل من أضل ، وذلك منذ أن سَوَّل لابن آدم الأول قتل أخيه ، فأخرجه عن دائرة العبادة ، كما قص علينا القرآن الكريم :

﴿ واتل عليهم نَبأَ ابنَيْ آدم بالحق ، إذ قَرّبا قرباناً ، فَتُقبِّل من أحدهما ولم يُتقبَّل من الآخر ، قال : لأقتلنَّك ، قال : إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطتَ إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يَدِيَ إليك لأقتلك ، إني أخاف الله ربَّ العالمين ، إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاءُ الظالمين ، فطوّعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾[3] .

---

(١) ١٧٢ الأعراف .

(٢) ١٢٣ ـ ١٢٧ طه .

(٣) ٢٧ ـ ٣٠ المائدة .

وهكذا عاش الناس معركة العبادة التي تتمثل في صراع الحق بالباطل ، ومقابلة الخير بالشر .. وجاءت الرسالاتُ السماوية والشرائع الربانية تترى تدعم حقيقة العبادة وأنها وظيفة الإنسان في الأرض ، وتبين أشكالها وتوضح طريقها ...

﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[١] .

﴿ ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعْبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبُدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضلَّ منكم جِبِلاً كثيراً ، أفلم تكونوا تعقلون ﴾[٢] .

وجاء في الحديث الشريف :

« ... وإني خلقت عبادي حنفاءَ كلَّهم ، وإنهم أتَتْهُم الشياطينُ فاجتالتهم في دينهم ، وحَرّمت عليهم ما أحلَلْتُ لهم ، وأمَرَتْهُم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً .. » [٣] .

ففي زمن الفترات بين الرسل ، والبعد عن الرسالات[٤] اتّجه الناس إلى العبادة بأشكال مختلفة ، فمارسوا أنواعاً من العبادات الباطلة ، ووقعوا في كثير من الانحرافات ... فعبد بعضهم الشمس والقمر ، وخضع آخرون للشجر والحجر ، وقدس آخرون العجل والبقر ، واختار غيرهم عبادة الجن والملائكة ...

فجاءت الرسالات السماوية ترشدهم إلى الصواب ، وتعود بهم إلى جادة الحق ، وعبادة رب الأرباب وتقول لهم :

---

(١) ٣٦ النحل .

(٢) ٦٠ ـ ٦٢ يس .

(٣) رواه مسلم انظر جمع الفوائد ٢ : ٧٠١ .

(٤) وهي ما يعبرعنه كثير من الكتاب : بالعصر البدائي للإنسان ، فيتصورون الإنسان بدأ بعبادة هذه الأشياء من حجر وشجر .. وشمس وقمر .. ثم توصل تدريجياً إلى عبادة الله . ولكن قصة آدم عليه السلام ـ كما عرضها القرآن ـ تنفي هذا التصور ، وتثبت أن الإنسان بدأ في الأرض عبداً لله ، ومن ثم بدأ الانحراف عن الخط ـ كما وضح لنا قبل قليل .

إن كانت عبادتكم لآلهتكم رغبةً في خير أو نفع ، أو رهبة من شر أو خَيرٍ ، فإن المالك لذلك كله هو الله الخالق القادر الضار النافع وحدَه سبحانه .

وإن كانت عبادتكم لآلهتكم عن تقدير وإعجاب ، وحب وتعظيم ، فلا شيء أحق بهذا من الله الخالق المبدع ، العليم الرحيم ، العلي العظيم .

وإن كانت عبادتكم لآلهتكم عادةً اعتدتموها أو تقاليدَ ورثتموها ، فمن العيب والسخف أن تتحكم العادات والتقاليد في مثل هذا الأمر العظيم !
ومن هنا : اشتدت المعركة بين الحق والباطل من أجل العبادة ، واحتدم النقاش بين الأنبياء وأقوامهم في سبيلها ..

فهذا نوح عليه السلام ـ أولُ الرسل على قول الأكثر ـ يجادل قومه ، ويدعوهم إلى نبذ عبادة الأصنام ، ويبين لهم أن الله وحده هو محلُ المحبة والتقدير ، وموئل الرغبة والرهبة .. كما قصت علينا سورة نوح عليه السلام ..

وهذا إبراهيم عليه السلام يقرر هذه الحقيقة ، ويستعمل مع قومه وأبيه أساليب عديدة في تقريرها ... كما نصت آيات سورة الأنعام[1] ، وآيات ، من سورة الأنبياء [2] وغيرها ..

وهذا (محمد) ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، يتابع هذه المسيرة ، ويؤكد هذه الحقيقة كما يعرف من آيات القرآن ، ومن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ...

وهكذا استمرت معركة العبادة ، وستستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ﴿ لِيهلكَ من هلك عن بينة ، ويَحْيى من حيٍّ عن بَيِّنة ﴾ [3] .

---

(١) ٧٤ ـ ٨٣ الأنعام .
(٢) ٥١ .. من سورة الأنبياء .
(٣) ٤٢ الأنفال .

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربُك ، ولذلك خَلَقَهُم ، وتمت كلمةُ ربك لأملأن جهنم من الجِنّةِ والناس أجمعين ﴾[١] .

هذا عن نشأة العبادة وتاريخها في حياة الناس .

☆ ☆ ☆

---

(١) ١١٨ - ١١٩ هود .

الدوافع إلى العبادة :

إن الذي يستقرئُ حياةَ الناس ومواقِفَهم من العبادة ، يمكنه أن يُجمل دوافعهم إليها في عدة دوافع وهي :

١ ـ دافع الشعور الفطري بالحاجة إليها .

٢ ـ دافع الرغبة والرهبة ، والخوف والطمع .

٣ ـ دافع المحبة للمعبود والتقدير له .

٤ ـ دافع العادات والتقاليد المتوارثة .

١ ـ أما عن دافع الشعور الفطري بالحاجة إلى العبادة :

فيتمثل في شعور الإنسان بطبيعته ، وإحساسه بأنه مخلوق مجبول على الخضوع والتذلل ، فإذا شعر بحاجته وفقره ، واعترف بقصوره وجهله ، دفعه ذلك إلى عبادةٍ تصله بخالقه الذي خلقه ، وهو أعلم بحاجاته ومتطلباته ، والذي بيده مقاليد الخير والشر ... ﴿ **ألا يعلمُ من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ [1]

ومن شذوذ الفطرة ، وضلال السلوك ، أن يدفع الإنسانَ شعورُه هذا إلى الخضوع لمخلوق مثله ، يشعُر بشعوره ، ويحتاج إلى مثل حاجته ، كما حدث في بعض عصور الجاهلية من عبادة الناس للناس ، وخضوعهم إلى أصنام حجرية ، أو بشرية لا تشبع رغباتهم ، ولا تسد حاجاتهم .

﴿ **يا أيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذبابُ شيئاً لا**

---

(١) ١٤ الملك .

يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوي عزيز ﴾[١].

﴿ قل أغيرَ الله أتخذ ولياً فاطرِ السموات والأرض ، وهو يُطعِمُ ولا يُطعَم ﴾[٢].

٢ ـ وأما عن دافع الرغبة والرهبة ، والخوف والطمع :

فإن الإنسان بفطرته ـ أيضاً ـ يرغب ويرهب ، ويخاف ويرجو ـ يرغب بالخير ويرهب الشر ، ويخاف العذاب ، ويرجو الثواب ...

ومن كان هذا شأنه ، لابد له من تقرب وتذلل لمن يملك النفع والضر ، ومن يُرجى ثوابه ، ويخشى عقابه .

وقد كان هذا الشعور بارزاً في عبادة المشركين لبعض آلهتهم وأصنامهم ، كما يظهر من محاجّة قوم إبراهيم عليه السلام له :

﴿ وحاجّه قومه ، قال أتحاجّونّي في الله وقد هدان ، ولا أخافُ ماتشركون به ، إلا أن يشاء ربي شيئاً ، وسعَ ربي كلَّ شيء علماً ، أفلا تتذكرون ! وكيف أخافُ ما أشركتم ولاتخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنَزِّل به عليكم سلطاناً ، فأيُّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[٣].

وكما ظهر من موقف سدنةِ العُزّى ، لما جاء خالد بن الوليد رضى الله عنه لهدمها ، فقد أمعنوا هرباً في الجبال وهم يقولون :

---

(١) ٧٣ ـ ٧٤ الحج .

(٢) ١٤ الأنعام .

(٣) ٨٠ ـ ٨٢ الأنعام .

« ياعُزّى خبّليه ، ياعُزّى عَوّريه ، وإلا فموتي بِرغَم [١] »

ومن تَخَوُّفِ وفد ثقيف من هدم ربَّتِهم لما أمرهم رسول الله ﷺ بهدمها ، فقال لهم : « سأبعث إليكم من يكفيكم هدمها » .

فبعث إليهم المغيرة بن شعبة رضي الله عنه فأخذ (الكرزين) أي المعول وقالَ لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثقيف فضرب بالكرزين، ثم سقط يركض برجله،فارتَجَّ أهل الطائف بصيحة واحدة ، وفرحوا وقالوا : أبعد الله المغيرة ، قتلته الربّة ، وقالوا لأولئك : من شاء منكم فليقترب .

فقام المغيرة فقال : والله يامعشر ثقيف إنما هي لكاعُ حجارةً وقدَر ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه ، ثم إنه ضرب الباب فكسره ، ثم علا سورها ، وعلا الرجال معه ، فمازالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سَوُّوها بالأرض) [٢] ،

وكان أول ما تكلم به ضمام أن قال: بئست اللات والعزى، قالوا: مه ياضمام اتق البرص والجذام، اتق الجنون.. قال: ويلكم إنها والله ما يضران ولا ينفعان...»[٣].

ومن هنا : كانت الرغبة والرهبة ، والخوف والطمع دافعاً أساسياً من دوافع المؤمنين والصالحين لعبادة الله سبحانه :

قال تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبُهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ [٤].

وقال : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعونَنا رَغَباً ورَهَباً ، وكانوا لنا خاشعين** ﴾ [٥].

---

(١) انظر سيرة ابن كثير ٣ : ٥٩٨ .
(٢) انظر سيرة ابن كثير ٤ : ٦٣ .
(٣) رواه الإمام أحمد والطبراني في الكبير ، انظر جمع الفوائد ١ : ١٣ .
(٤) ١٦ السجدة .
(٥) ٩٠ الأنبياء .

وقال : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ [١] .

ومن هنا نعلم : أن ما روي عن بعض الصالحين والعارفين أنه قال : « إلهي ماعبدتُك طمعاً في جنتك ، ولا خوفاً من عقابك ،ولكني عبدتك لأنك إله تستحق العبادة » ، وما شابهه من أقوال ، مما وقع الناس في تحليله وتبريره بين الإفراط والتفريط .

نعلم أنه حالٌ لا يمثل الكمال ، حيث صدر عنهم هذا القول في حالة خاصة غالبة ، لا تنكر عليهم ولا يُقلّدون فيها [٢] .

أما حالة الكمال العامة التي يُدعى إليها ويتابع فيها :ما كان عليه حال رسول الله ﷺ خاصة ، وحال الصالحين عامة ...

وذلك : كما وصفتهم به الآيات السابقة [٣] .

وكما أمر به الله في القرآن فقال : ﴿ وادْعُوه خوفاً وطَمَعاً إنّ رحمةَ الله قريب من المحسنين ﴾ [٤] ، وقال : ﴿ وإيّايَ فارهبون ﴾ [٥] ، وقال : ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ [٦] .

وكما علمنا رسول الله ﷺ أن نتحقق بذلك ، ونقول في دعاء القنوت « نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابَك الجد بالكفار مُلْحَق ..» [٧] .

---

(١) ٥٧ الاسراء .

(٢) وهذا حكم الأحوال الخاصة التي تُروىٰ عن بعض الصالحين ، فتصدر عنهم فيها أقوال وتصرفات مشكلة .

(٣) انظر الآيات : ١٦ السجدة ، ٩٠ الأنبياء ، ٥٧ الاسراء ، ٤٩ ـ ٥٠ النحل .

(٤) ٥٦ الأعراف .

(٥) ٤٠ البقرة .

(٦) آخر آية الانشراح .

(٧) رواه البيهقي في السنن ٢ : ٢١٠ ـ ٢١١ ط دار الفكر .

وكما كان يدعو ﷺ فيقول :

(اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل ..) [١] ، وقد ورد في الدعاء المأثور قبل النوم عن البراء رضي الله عنه أن النبي ﷺ علمه أن يقول إذا أتى مضجعه :

« اللهم إني أسلمتُ نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ،وفوضتُ أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبةً ورهبةً إليك .... الحديث » [٢] .

٣ ـ وأما عن دافع المحبة والتقدير :

فالإنسان مجبول على حب وتقدير من أحسن إليه ، ومنه قيل : « الإنسان عبد الإحسان » ، وقد علل بعضهم اختيار بعض الهنود عبادة البقر محبةً لها وتقديراً لنفعها ، وعلل آخرون عبادة الشمس والقمر ، والشجر والحجر ، بما لمسه الناس من آثارها وعظيم نفعها في حياتهم ، وفائدتها لهم ..

فحجبتهم عقولهم القاصرة بمحبة الأشياء عن محبة خالقها وموجد النفع فيها ، قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يَتَّخِذُ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشدُّ حباً لله ﴾ [٣] .

وقد تَحَبَّبَ الله لعباده بكل معاني التحبب ، حيث خلقهم فأحسن خلقهم وسواهم ، وحيث فضلهم على كثير مما خلق تفضيلاً ، وسخر لهم ما في الكون جميعاً برّه وبحره ، وسماءَه وأفلاكه ، وشرع لهم من الدين ما يضمن لهم سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وأرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين فكان حقاً عليهم أن يحبوه وأن لا يفضلوا على حبه أحداً ..

ومن هنا كانت علاقة المؤمنين العابدين بربهم جل جلاله علاقة محبةٍ متبادلة ..

---

(١) رواه البخاري في الأدب ، وأحمد والحاكم وصححه ، انظر جمع الفوائد وذيله ٢ : ٦٦٠ .

(٢) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي ، انظر جمع الفوائد ٢ : ٦٦٠ ط الهند ، المطبعة الخيرية .

(٣) ١٦٥ البقرة

﴿ قل إن كنتم تحبون الله ، فاتبعوني يَحببكم الله .. ﴾ . [١].
﴿ فسوف يأتي الله بقوم يُحبهم ويحبونه ، ﴾ . [٢].
وكانت محبتهم لله لا يعدلها حب :
﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله .. ﴾ . [٣].

وفي الحديث : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد طعم الإيمان : من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما » [٤].

وكانت المحبة أحد الدوافع الثلاثة الأساسية الأولى التي دفعت المؤمنين إلى عبادة الله وأسماها .

فهم يعبدونه لأنهم يحبونه ، ولأنهم يرغبون في ثوابه ، ويخافون عقابه ، ولأنهم يشعرون بحاجتهم وافتقارهم الشديد إليه .

وإلى اجتماع هذه الدوافع الثلاثة في عبادة المؤمنين يشير قولُ إبراهيم عليه السلام في مناقشته لقومه :

﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا نعبد أصناماً فنظلُّ لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لي إلا ربَّ العالمين ، الذي خلقني فهو يَهْدين ، والذي هو يُطعمني ويسقين ، وإذا مرضتُ فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يُحيين ، والذي أطمع أن يغفرلي خطيئتي يوم الدين ﴾ [٥].

---

(١) ٣١ آل عمران .

(٢) ٥٨ المائدة .

(٣) ١٦٥ البقرة .

(٤) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي انظر جمع الفوائد ١ / ١٧ .

(٥) ٦٩ - ٨٢ للشعراء .

وقوله : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجناتٍ وعيون ... ﴾ . [١].

ومن هنا وصف الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ العبادة المأمور بها شرعاً : بأنها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فقال :

« لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له .

فإن آخر مراتب الحب : هو التَتَيُّم ، وأوله : العلاقة ، لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم الصبابة ، لانصباب القلب إليه ، ثم الغرام ، وهو الحب الملازم للقلب ، ثم العشق ، وآخرها التتيم . يقال تَيَّمَ الله أي عبد الله فالمتيَّم : المعَبَّدَ لمحبوبه ... وقال :

ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له ، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه ، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى . بل يجب أن يكون الله أحبَّ إلى العبد من كل شيء ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله .

وكل ما أُحِبَّ لغير الله فمحبته فاسدة ، وما عُظِّم بغير أمر الله فتعظيمه باطل ، قال الله تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشَوْن كسادها ومساكنُ ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ . [٢]

---

(١) ١٣١ ـ ١٣٤ الشعراء .

(٢) ٢٤ التوبة .

قال : فجنس المحبة : تكون لله ولرسوله كالطاعة ، فإن الطاعة لله ولرسوله ، والإرضاء له ولرسوله ﴿ والله ورسولهُ أحقُّ أن يُرضوه ﴾[١] والإيتاءُ لله ولرسوله ﴿ ولو أنهم رَضُوا ما آتاهم الله ورسوله ﴾[٢] .

وقال : في موطن آخر : « فكلما ازداد القلب حباً له ازداد عبودية له ، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حباً وحرية عما سواه »[٣] .

٤ ـ وأما دافع العادات والتقاليد المتوارثة :

فإن الإنسان مفطور على تقليد غيره ولاسيما إذا كان أكبر منه أو أقوى ، ومن ثم كانت مسئولية الآباء والمربين كبيرةً في توريث العادات الحسنة ، والخصال الكريمة نظرياً وعملياً ..

وينشأ نـاشيء الفتيـان منـا　　على مـاكـان عـوده أبـوه

وجاء في الحديث « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[٤] .

وقد كان هذا الدافع من أهم دوافع المشركين لعبادة الأصنام والأوثان ، فكانوا به يحتجون ، وعليه يعتمدون في نقاشهم مع أنبيائهم ، كما أشار إلى ذلك القرآن في مواطن عديدة منها :

﴿ قالوا : وجدنا آباءَنا لها عابدين ﴾[٥] .
﴿ وما يعبدون إلا كما يعبُد آباؤهم من قبل ﴾[٦] .

---

(١) ٦٢ التوبة .

(٢) ٥٩ التوبة ـ انظر العبودية ٤٤ ـ ٤٥ .

(٣) انظر قوله مفصلاً في العبودية ١٠٨ ـ ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما بألفاظ متقاربة . انظر فيض القدير ٥ : ٣٤ .

(٥) ٥٣ الأنبياء .

(٦) ١٠٩ هود .

﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ [١].

﴿ قالوا : أجئتنا لنعبُدَ الله وحده ، ونَذَرَ ما كان يعبد آباؤنا ﴾ [٢].

وهذا هو موقف الجاهل المتنكر لعقله ، والأحمق المبطل لحواسه وفكره : ﴿ صم بكم عُمْي فهم لا يرجعون ﴾ [٣].

﴿ وإذا قِيلَ لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بَلْ نتَّبِعُ ما أَلْفَينا عليه آباءنا ، أوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يَهتدون ، ومَثَلُ الذين كفروا كمثلِ الذي يَنْعِقُ بما لا يسمَعُ إلا دعاءً ونداءً ، صم بكم عُمْيٌ فهم لا يعقلون ﴾ [٤].

هذه أهم الدوافع التي دفعت الناس إلى العبادة ، فنشأت العبادة في حياة الناس بأشكالها المختلفة ، وجهاتها المتعددة .

وبهذا نكون قد مررنا في هذه المقدمة الطويلة بمعنى العبادة ونشأتها ودوافعها ، وآن لنا أن ننتقل إلى صلب الموضوع .

☆ ☆ ☆

---

(١) ٦٢ هود .

(٢) ٧٠ الأعراف .

(٣) ١٨ البقرة .

(٤) ١٧٠ - ١٧١ البقرة .

٢ - الموضوع :

ويشتمل على عدة نقاط :

(أ) طبيعة العبادة في الإسلام .
(ب) ضرورتها والحاجة إليها .
(ج) أقســـامهـــا .
(د) خصـــائصهـــا .
(هـ) وظيفتهـــــا .

(أ) طبيعة العبادة في الإسلام :

لابد لفهم طبيعة العبادة في الإسلام من تحليل لها إلى عناصرها الأساسية ، والذي يظهر للمتفكر في طبيعتها أنها تتكون من ثلاثة عناصر :

١ ـ عنصر الرقي الروحي . ٢ ـ عنصر التأمل والتفكير . ٣ ـ وعنصر الخضوع الجسدي الإرادي .

١ ـ أما العنصر الأول : وهو : الرقي الروحي :

فهو العنصر المتعلق بجانب القلب والروح ، الذي يُشعر المرء بصلته بخالقه ، ويقوي فيه جانب الروح على جانب الجسد ، فتسمو روحه على جسده ، وتتغلب على غرائزه الحيوانية ، فيرجح جانب الخير فيه على جانب الشر ...

ويتجلى هذا العنصر : في الوقوف بين يدي الله في الصلاة أناء الليل وأطراف النهار ، وفي دعاء العبد ومناجاته لربه ، كما يتجلى في الإمساك عن الطعام والشراب والشهوة في أيام الصيام ، وفي الحنين والشوق إلى بيت الله الحرام ، والطواف والالتزام ، والتجرد للإحرام ....

٢ ـ وأما العنصر الثاني : وهو : عنصر التأمل والتفكير :

فهو العنصر المتعلق بجانب العقل والفكر ، والذي يدفع المرء لإعمال عقله ، والتعرف على خالقه ، وحقيقة نفسه ، فيشعر دائماً بعبوديته ، وافتقاره إلى مولاه ، يعتمد عليه ، وبه وحده يستعين ...

ويتجلى هذا العنصر : في القراءة في الصلاة وخارجها ، والتفكر في معانيها ، كما يتجلى في الدروس التي يقتبسها الفكر من أعمال الصيام والحج ، وفي تفهم الحكَم الشرعية من مشروعية العبادات ، وفي وعي وظيفة العبادة في الفرد والمجتمع ...

ومن هنا جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال :

« ليس لك من صلاتك إلا ما عَقَلْتَ منها » كما جاء في المسند مرفوعاً : [١]

« إن العبد ليصلي الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها ، أو ثلثها ، أو ربعها حتى بلغ عشرها » .

وروى الترمذي وغيره مرفوعاً « إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل »[٢].

٣ ـ وأما العنصر الثالث : وهو : عنصر الخضوع الجسدي الإرادي :

فهو العنصر المتعلق بجانب الجسد ، الذي يمرّن العبد على الطاعة والاتباع لكل ما أمر به الله ، أو نهى عنه ، ويدفعه إلى العمل الصالح ، ويحجزه عن كل قبيح ، وقيدناه بالإرادي تمييزاً له عن الخضوع الجِبِلّي الفطري الذي يشترك فيه الإنسان مع سائر المخلوقات .

ويتجلى هذا العنصر في الركوع والسجود ، والقيام والقعود في الصلاة ، كما يتجلى في الإمساك والإفطار في أوقات محددة ، وعن أشياء معينة ، كما يتجلى في معظم مناسك الحج وأعماله من تجرد ، وطواف ، وسعي ، ووقوف ، ورمي وتحلل ... كما يظهر في الإقدام على إنفاق المال في الزكاة والصدقات ...

وهذه العناصر الثلاثة غالباً ما تجتمع في العبادات الأساسية ، والشعائر التعبدية ، وقد يبرز عنصر منها أكثر من غيره في العبادات الأخرى الفرعية والملحقة [٣] . إلا أنه لا يمكن أن تتجرد عبادة من العبادات عن هذه العناصر جميعاً ، وإلا كانت العبادة عندئذ (عادة) أو عملاً لا شعورياً أشبه ما يكون بعمل الحيوان ...

---

(١) هو في المسند بلفظ مقارب ، رمز له في الفتح الرباني : أبو داود والنسائي وابن حبان والبيهقي ، قال : وإسناده جيد ٤ : ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٢) انظر مدارج السالكين ١ : ٥٦٣ – ٥٦٥ طـ دار الكتب العلمية .

(٣) هو اصطلاح لي في تقسيم العبادات ، يأتيْ في بيان أقسام العبادة .

ومن هنا جاء في وصف الكافرين المحرومين من عبادة الله عز وجل : **﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم ﴾**[١] .

ففي كل تصرف من تصرفات المسلم في هذه الحياة ، **(خضوع عملي)** لحكم الله فيه ، سواء أكان هذا التصرف واجباً أو مندوباً ، أو حراماً أو مكروهاً ، أو مباحاً .. وسواء فهم العبد عِلّة هذا الخضوع وغايته ، أو كانت العلة خفية منه .... **(ورقيٌّ روحي)** يشعره بقربه من خالقه ، وأنه على طاعة له ورضاً منه ، **(وتأمل وتفكير)** يدفعه لاستيضاح الغاية ، وفهم العلة والحكمة من هذه العبادة أو تلك ، ليسعى في تحقيق أهدافها ، والاستفادة من وظائفها ...

ومن تحليل العبادة إلى عناصرها الثلاثة : يظهر لنا مرادُ العلماء في تقسيم العبادات إلى عبادات معللة وغير معللة ، وتقسيم العلل إلى علة معقولة المعنى ، وعلة غير معقولة المعنى « تعبدية » .

فحيث اجتمع في العبادة الواحدة والعمل المعيَّن العناصرُ الثلاثة السابقة ، أو برز عنصر التأمل والتفكير : اعتبر عبادة معللة ، ووصفت علتها بأنها معقولة المعنى .

وذلك : كمشروعية الصلاة والزكاة ، والصيام والحج ، وتحريم الخمر والميسر ، والأمر بالجهاد والصدق ... وهكذا ...

وحيث خفي عنصر التأمل والتفكير في عبادة من العبادات أو عمل معين فيها ، ولا أقول : فُقِدَ ـ لأن العقول البشرية تختلف وتتفاوت في استظهار هذه العناصر ، وتذوقها وتفهمها ـ فحيث خفي ذلك العنصر : اعتبرت العبادة غير معللة ، وعبر عن علتها بأنها « تعبدية » أي غير معقولة المعنى .

---

(١) ١٢ محمد ﷺ .

وذلك كتحديد عدد الصلوات بخمس ، وعدد الركعات في كل صلاة ، وعدد الركوع والسجود فى كل ركعة ، وتحديد أشواط الطواف ، وعدد الحصيات في الرمي ، وحدود النصاب ، والجزء الواجب في الزكاة ، وعدد الجلد للزاني غير المحصن والشارب للخمر ، وهكذا ...

ومن هنا نعلم : أن العبادة في الإسلام ليست مشاعرَ نفسية غريزية ، ولا حركات جامدة لا شعورية ، وإنما هي رقي روحي ، وتأمل وتفكير ، وخضوع وانقياد[١] ... فهي أشبه ما تكون بمدارس تربوية ، تتنوع مناهجها الدراسية ، وتختلف أساليبها التربوية ، تتناول هذا الإنسان فتربيه ، وتدربه على السير في الطريق المستقيم الذي رسمه له خالقه ، وتهذب له غرائزه وشهواته ، وتوجهها في الطريق الأقوم ...

وهذا يفسر لنا مجيء مشروعية معظم العبادات الأساسية والشعائر التعبدية معللة .

كما جاء في الصلاة :

﴿ وأقم الصلاةَ لذِكْري ﴾ [٢] .

﴿ وأقم الصلاةَ ، إن الصلاة تَنْهَى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [٣] .

« أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، ما تقولون : ذلك يُبقي من درنه ؟ قالوا : لأيبقي من درنه شيئاً ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا .. » [٤] .

---

(١) لقد أشار إلى جانب من طبيعة العبادة في الإسلام فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقاء ـ حفظه الله ـ في مقال له بعنوان : « العبادة في الإسلام عمل عقلي وتفكير ، فلا يجوز أن ترافقها الموسيقا » وذلك جواباً لمن سأله عن جواز ذلك ، وهي منشورة في مجلة حضارة الإسلام الدمشقية في العدد الرابع . لشهر ربيع الآخر لعام ١٣٨٠ هـ .

(٢) ١٤ طه . (٣) ٤٥ العنكبوت . (٤) متفق عليه .

وكما جاء في الزكاة :

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكّيهم .. ﴾ [١] .

« الصدقة تطفىء الخطيئة ، كما يطفيء الماء النار » [٢] .

وكما جاء في الصوم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [٣] ... ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ [٤]

« الصوم جُنَّة » [٥] .

وكما جاء في الحج :

﴿ لِيَشْهدوا منافعَ لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ﴾ [٦] .

« إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ، ورَمْي الجمار لإقامة ذكر الله » [٧] .

وكما جاء في الجهاد :

﴿ ولولا دَفعُ اللهِ ألنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذْكَرُ فيهاَ اسمُ آللهِ كثيِراً ... ﴾ [٨] .

﴿ وقاتلوهم حتى لاتكونَ فتنة ، ويكونَ الدين كلُّه لله .. ﴾ [٩] .

إلى غير ذلك من علل صريحة ومستنبطة تعرف في محالها من كتب العبادات والأخلاق ... [١٠] .

---

(١) ١٠٣ التوبة .

(٢) رواه الترمذي وقال : حسن صحيح .

(٣) ، (٤) ١٨٣ - ١٨٥ البقرة .

(٥) رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

(٦ - ٨) ٢٨ : ٤٠ الحج .

(٧) رواه الترمذي وأبو داود ، انظر جمع الفوائد ١ : ٤٨٢ .

(٩) ٣٩ الأنفال .

(١٠) انظر على سبيل المثال إحياء علوم الدين ، الجزء الثاني والثالث ، فلقد فصل في أسرار العبادات وحكمها كثيراً ...

(ب) ضرورة العبادة والحاجة إليها :

تتجلى لنا ضرورة العبادة للإنسان وحاجته إليها في ثلاثة جوانب :

١ ـ جانب يتعلق بالله عز وجل وصفاته .
٢ ـ جانب يتعلق بطبيعة الإنسان .
٣ ـ جانب يتعلق بطبيعة العبادة في الإسلام .

أما الجانب الأول : وهو الذي يتعلق بالله عز وجل وصفاته :

فمن المعلوم أن لكل اسم من أسماء الله جل جلاله وصفاته أثراً في هذا الكون ، ودلالة تدل عليه ...

فأثر الرحمن الرحيم : الرحمة البالغة .

وأثر الخالق البارىء المُصَوِّر : الخلق والتصوير ...

وأثر الرزاق القابض الباسط : الرزق وقبضه وبسطه ...

وأثر المهيمن العزيز الجبار المتكبر : الهيمنةُ على هذا الكون ، والخضوع له ، واللجوء إليه ...

وأثر الهادي النافع ، والمعطي المانع : الاهتداء بهديه ، والرغبة بنفعه وعطائه ، والرهبةُ والخوف من ضره ومنعه ...

وقل مثل هذا في كل اسم من أسماء الله الحسنى ، وصفاته العلى ... ولا يمكن أن تبرز آثار جميع هذه الصفات إلا بمخلوقات تمارس العبادة لله ، تخضع له وتستعين به ، ترغب بعطائه ، وترهب عقابه ...

ومن هنا : كان من أنواع العبادة في الإسلام : الدعاءُ بهذه الأسماء ، ومناجاةُ الله بها ، قال تعالى :

﴿ ولله الأسماءُ الحُسْنى فَادْعوه بها ، وذَرُوا الذين يُلحدون في أسمائه ، سيُجزَوْنَ ما كانوا يعملون ﴾ [1] .

---

(١) ١٨٠ الأعراف .

﴿ قُلِ ادْعوا الله أوِ ادْعوا الرحمن ، أيا ما تَدْعوا فلهُ الأسماء الحسنى .. ﴾ (١).

ومن هنا : جاء الترغيب بإحصائها وحفظها ، ليكون العبد على صلة دائمة بها ، وتفكر مستمر في معانيها ...

ففي الصحاح : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظهما دخل الجنة » (٢) وللترمذي : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة ، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ... إلى آخر الحديث الذي عددها ... » (٣) .

وجاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سَريَّةٍ وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ قل هو الله أحد .. فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال :

« سَلُو لأي شيء يصنعُ ذلك ، فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبي ﷺ : أخبروه أن الله يُحبّه » (٤) .

وإلى هذا الجانب من جوانب ضرورة العبادة أشار الإمام ابن القيم رحمه الله ، فقال :

« فاعلم أن سر العبودية وغايتها وحكمتها : إنما يطَّلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل ، ولم يُعطّلها ، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها ، ومعنى كونه إلهاً ، بل هو الإله الحق ، وكل إله سواه فباطل ، بل أبطلُ الباطل ، وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له وأن العبادة موجَبُ إلهيته وأثرُها ومقتضاها ، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات ، وكارتباط المعلوم بالعلم ، والمقدور بالقدرة ، والأصوات بالسمع ، والإحسان بالرحمة ، والعطاء بالجود ... » (٥) .

١١٠ الإسراء .

(٢) متفق عليه .

(٣) قال في أعذب الموارد : رواه أيضا ابن حبان والحاكم والبيهقي في الشعب ، قال النووي في الأذكار : حديث الترمذي حسن ، كذا في الفيض ٢ : ٤٨٨ .. انظر جمع الفوائد ٢ : ٦٢٣ .

متفق عليه .

مدارج السالكين ١ : ١١٠ .. وانظر كلاماً حول هذا في الأركان الأربعة للندوي ص ١٤ - ١٥ .

٢ ـ وأما الجانب الثاني : وهو المتعلق بطبيعة الإنسان :

فالإنسان كما نعلم : مخلوق مُكَلَّفٌ مُتَميِّز ، ضعيفٌ قاصر ، مركبٌ من روح وجسد ... فمن حيثُ كونُه مخلوقاً : يتجلى فيه عنصر الخضوع والطاعة لخالقه .

ومن حيث كونه مكلفاً : تظهر حاجتُه إلى بيان المُكلَّف به من قبل المكَلِّف ، كما يظهر استعداده للقيام بالوظيفة التي كلف بها وهي (العبادة) .

ومن حيث كونه ضعيفاً قاصراً : تظهر حاجته إلى العون والتقوية من القوي ، وإلى التوجيه والإرشاد من العليم الخبير ...

ومن حيث كونُه مركباً من روح وجسد ، تتجلى حاجته إلى تغذية كل من الجانبين وضرورة إعطاء كل جانب حقه .

والعبادة بمعناها العام هي : التي تلبي له جميع هذه المتطلبات ، وتسد له جميع الاحتياجات .. قال تعالى :

﴿ هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، إنا خلقنا الإنسان من نُطفة أمْشاج نَبْتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً ، وإما كفوراً ... ﴾ [1].

وإلى هذه الحاجات أشار إبراهيم عليه السلام وهو يناقش قومه في عبادة الله ، ويدعوهم لنبذ عبادة الأصنام ، فقال :

﴿ الذي خَلَقَنِي فهو يَهدين ، والذي هو يُطْعمني ويَسْقين ، وإذا مرضتُ فهو يَشفين ، والذي يميتني ثم يُحيين ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ [2].

---

(١) ١ ـ ٣ الإنسان .

(٢) ٧٨ ـ ٨٢ الشعراء .

٣ ـ أما الجانب الثالث : وهو المتعلق بطبيعة العبادة :

فقد مر معنا في حديثنا عن طبيعة العبادة أنها تشتمل على ثلاثة عناصر أساسية وهي : الرقي الروحي ، والتأمل والتفكير ، والخضوع الجسدي .

ولا تخفى حاجة الإنسان الذي عرفنا أنه مركب من روح وجسد ، ومن عقل وفكر ، وفطرة على الخضوع والتذلل ... لا تخفى حاجته إلى هذه العبادة المؤلفة من هذه العناصر ، وضرورتُها إليه .

فإذا كان الغذاء المادي يسد حاجات الإنسان الجسدية ، فإنه لا يَسُدُّ له حاجاته الروحية والفكرية والعقلية والفطرية إلا عبادته لله عز وجل ..

ومما يؤكد هذه الضرورة واقع البشرية في ابتعادهم عنها ، أو تجاهلهم لها ، أو انحرافهم بها ...

كما يظهر من أحوال الناس في زمن الفترات بين الرسل ، وفي عصور الجاهلية القديمة والحديثة ، حيث تخبطوا في شئونهم كلها خبط عشواء ...

فعبدوا كلَّ شيء من دون الله ، حتى عبدوا صنماً من تمر يصنعونه بأيديهم ، وقدَّس بعضهم أنواعاً من الحيوانات ، وتبركوا بأبوالها وآثارها ...

وتسلط قويُّهم على ضعيفهم ، وذَلَّ فقيرهم لغنيهم ، وأصبحت أموالهم مباحةً للنهب والسلب ، ودماؤهم عرضةً للقتل والسفك ...

واختلت موازينهم وفسدت أخلاقهم ، فأصبح المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً .. وغَلَّبَ بعضهم جانب الجسد على الروح ، وأصبحوا عبيداً لغرائزهم وشهواتهم ... ورجح آخرون جانب الروح ، فوقعوا في الترهب والتبتل ...

ولقد صور العلامة الدهلوي ـ رحمه الله ـ حاجة الإنسان إلى عبادة الله وشرعه وإرسال رسله تصويراً جميلاً ، وحلله تحليلاً دقيقاً ، فقال :

« إن الحق في التكليف بالشرائع : أن مثله كمثل سيد مرض عبيده ، فسلط عليهم رجلاً من خاصته ليسقيهم دواءً ، فإن أطاعوا له أطاعوا السيد ، ورضي عنهم سيدهم وأثابهم خيراً ، ونجوا من المرض . وإن عصوه : عصوا السيد وأحاط بهم غضبهُ ، وجازاهم أسوأ الجزاء ، وهلكوا من المرض ، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ حيث قال راوياً عن الملائكة : « إن مثله كمثل رجل بنى داراً ، وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المَأْدُبَة ...) [1] .

وقال أيضاً :

« فإن قيل : من أين وجب على الإنسان أن يُصلي ، ومن أين وجب عليه أن ينقاد للرسول ؟ ومن أين حَرُمَ عليه الزنا والسرقة ؟ فالجواب :

وجب عليه هذا ، وحرم عليه ذلك : من حيث وَجبَ على البهائم أن ترعى الحشيش ، وحرم عليها أكل اللحم ، ووجب على السباع أن تأكل اللحم ولا ترعى الحشيش ... ومن حيث وجب على النحل أن يتبع اليعسوب ...

إلا أن الحيوان استوجب تلقّي علومها إلهاماً جبليّاً ، واستوجب الإنسان تلقي علومه كَسْباً ونظراً ، أو وحياً أو تقليداً ... » [2] .

☆ ☆ ☆

---

(١) حجة الله البالغة ١ : ١٣ .

(٢) حجة الله البالغة ١ : ٥٠ .

(جـ) أقسام العبادة في الإسلام :

ونريد بالعبادة هنا : العبادة بمعناها العام والتي عرفناها بأنها :

« عمل العبد الإرادي الموافق لطلب المعبود » .

فقد اختلفت أساليب الباحثين والكتاب في تقسيم العبادة إلى أقسامها ، وبيان أنواعها تبعاً لكثرة أشكالها وتشعبها ، وحتى نستوعب معظم هذه الأقسام والأنواع بشكل منظم ، رأينا أن نتناول تقسيمها من حيثياتٍ متعددة ، وهي :

١ ـ تقسيم العبادة من حيث تَعلُّقُها . ٢ ـ ومن حيث وَضْعُها .

٣ ـ ومن حيث طبيعتها . ٤ ـ ومن حيث حكمها .

٥ ـ ومن حيث آثارها .

وسنتناول هذه الحيثيات جميعها بشكل مجمل ، فنقول :

١ ـ تقسيم العبادة من حيثُ تَعَلُّقُها :

تنقسم العبادة من حيث تعلقها بالعبد إلى ثلاثة أقسام أساسية هي :

(أ) عبادات بدنية . (ب) عبادات مالية . (جـ) عبادات جامعة .

(أ) أما العبادات البدنية :

فهي على ثلاثة أنواع : عبادات قلبية ، وعبادات فكرية [١]، وعبادات جسدية .

---

(١) مشى أكثر الكتاب على تقسيم العبادات البدنية إلى قلبية وجسدية فحسب ، ولم يجعلوا منها العبادات الفكرية ، ولعل هذا عائد إلى آراء بعضهم في عدم التفريق بين القلب والعقل في الاصطلاح كما يؤخذ من ظاهر كثير من الآيات القرآنية ، ومن تعريفاتهم لكل من العقل والقلب والروح ..

وإن الذي نختاره: تقسيمُ العبادة إلى قلبية وفكرية وجسدية ، لتميز كل نوع عن الآخر ، فالتفكر مثلاً ، والنظر في ملكوت السموات والأرض نوع خاص من العبادات متميز عن العبادات القلبية ، كالإخلاص والتوكل والمحبة وغيرها ...

فمن العبادات القلبية :

التصديق بوجود الله ، والإيمان بقدرته وعلمه ، والإخلاص له والتوكل عليه ، والمحبة له ، والمحبة فيه ، والنيةُ الصالحة ، واجتناب الرياء والعجب والكبر ... إلى غير ذلك من أعمال القلوب ...

ومن العبادات الفكرية :

التفكر في صفات الله وأسمائه ، والنظر في عظيم مخلوقاته ، وعجائب صنعه ، وتدبّر القرآن الكريم ، وهي المشار إليها في كثير من الآيات القرآنية المخاطبة للعقل .

كقوله تعالى :

﴿ ويُريكم آياتهِ لعلكم تعقلون ﴾ [١] .

﴿ وله اختلافُ الليلِ والنهار أفلا تعقلون ﴾ [٢] .

﴿ وتلك الأمثالُ نَضرِبها للناس ، وما يَعْقِلُها إلا العالمون ﴾ [٣] .

﴿ إن في السموات والأرض لآياتٍ للمؤمنين ، وفي خَلْقِكم وما يبُثّ من دابة آياتٌ لقوم يوقنون ، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريفُ الرياح آياتٌ لقوم يعقلون ﴾ . [٤] .

﴿ وسَخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون ﴾ [٥] .

﴿ كذلك يُبَيِّنُ الله لكم الآياتِ لعلكم تَتَفكرون ﴾ [٦]

---

(١) ٧٣ البقرة .

(٢) ٨٠ المؤمنون .

(٣) ٤٣ العنكبوت .

(٤) ٣ . ٥ الجاثية .

(٥) ١٣ الجاثية .

(٦) ٢١٩ ، ٢٦٦ البقرة .

وهي التي وصف اللهالمؤمنين بالقيام بها ، فقال :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك ، فقنا عذاب النار ...﴾ (١) .

﴿ أفلا يَتَدبَّرون القرآنَ أَمْ على قلوبٍ أقفالُها ﴾ (٢) .

ومن العبادات الجسدية :

العبادات التي تتعلق بجوارح الإنسان وحواسّه جميعها ، كاللسان واليدين والرجلين ، والسمع والبصر ، والذوق والشم واللمس وهكذا ...

فمن عبادات اللسان : النطق بالشهادتين وتلاوة القرآن ، وذكر الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصدق ، واجتنابُ الكذب والغيبة والنميمة ، وشهادة الزور ..

ومن عبادات اليدين : حركاتها في الصلاة ، والأخذ باليمين ، والبطش في مرضات الله ...

ومن عبادات الرجلين : الوقوف في الصلاة ، والمشي إلى المساجد ، والغدو ، والرواح في سبيل الله ...

ومن عبادات السمع : الإنصات إلى تلاوة القرآن ، وسماع الخير ،والكف عن سماع الشر والغيبة ،والغناء المحرم والمعازف ...

ومن عبادات البصر : النظر إلى الكعبة وفي المصحف ، وكف النظر عن المحرمات والعورات .

ومن عبادات الذوق والطعام : سحور الصائم وإفطاره ، وتناول الطعام والشراب المباح ، واجتناب المحرم منه ...

---

(١) ١٩٠ ـ ١٩١ آل عمران .

(٢) ٢٤ محمد ﷺ .

ومن عبادات الشم : التمتع بالروائح الطيبة المباحة ، وكف الشم عن الحرام ، كالطيب للمحرم ، وطيب المرأة الأجنبية .

ومن عبادات اللمس : استلام الحجر الأسود والركن اليماني ، واجتناب لمس المرأة الأجنبية وهكذا ...إلى غير ذلك من عبادات لا تخفى على ناظر ، وترجع إلى نوع من هذه الأنواع ..

ولقد توسع في التمثيل لكل من العبادات القلبية والجسدية الإمام ابن القيم رحمه الله بشكل مرتب في كتابه القيم « مدارج السالكين » فليرجع إليه من أراد التوسع[1] .

(ب) أما العبادات المالية :

فهي أعمال الإنسان وتصرفاته الشرعية المتعلقة بماله من حيث الكسب والإنفاق والجمع والادخار ... وهكذا ..

فمن ذلك : زكاته الواجبة ، وصدقاته النافلة ، وبيعه وشراؤه على الطريقة الشرعية ، واجتناب الربا والدخل الحرام .. وإنفاقه على نفسه وعياله ورحمه ، وكل تصرف يدخل في إطار قسم المعاملات في الاصطلاح الفقهي ، كالإجارة والرهن والسَّلَمِ ... مما يعرف في محاله من كتب الفقه .

(جـ) أما العبادات الجامعة :

فهي العبادات المتعلقة بأكثر من جهة من جهات العبد ، كجسده وماله وفكره وقلبه ...

ومن ذلك : الحج ، والجهاد ، وبر الوالدين ..

فالحج : عبادة جامعة تتعلق بقلب الحاج من خيث النية والقصد .. كما تتعلق بجسده وجوارحه من حيث الأعمال والمناسك ، من تلبية وطواف وسعي ورمي ووقوف وتحلل .. كما تتعلق بماله من حيث الإنفاق ، والهدي والصدقات ....

---

(١) انظر مدارج السالكين ١ :١٢٣ – ١٣٧ .

وكذلك الجهاد بمعناه العام وهو : (بذل الجهد في سبيل الله عز وجل) فهو : عبادة جامعة تتعلق بقلب العبد من حيث النيةُ وتحديثُ النفس بالغزو ...

كما تتعلق بجسده وجوارحه في التحرك بالدعوة وخوض ميادين القتال ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. كما تتعلق بماله من حيث الإنفاق فيه ... وهكذا ...

٢ ـ تقسيم العبادة من حيث وَضْعُها :

تنقسم العبادة من حيث وضعها إلى ثلاثة أقسام وهي :

(أ) عبادات أساسية ، أو « شعائر تعبدية » . (ب) عبادات فرعية[1] .

(جـ) عبادات مُلحقة[2] .

والمراد بالعبادات الأساسية والشعائر التعبدية :

أمهاتُ العبادات وشعائرُها البارزة : كالإقرار بكلمتي التوحيد ، والصلاة والزكاة والصيام والحج ، وما شابهها من العبادات الكبرى والشعائر : كالجهاد والأذان والجماعة ونحوها ..

وسُميت هذه العبادات « شعائر » لأنها علامات وعلائم على العبادة بالمعنى العام ، وهي الخضوع لله سبحانه .

فهي تُشعر العبد بعبوديته لله ، وخضوعه الدائم له ، فتكون تذكيراً له بعبوديته ، كما تُشعر الآخرين بأن الذي يقوم بها:عبدٌ خاضع لله فتكون تزكيةً له عند غيره ...

ومن هنا جاء في الحديث : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان .. » [3] .

---

(١) ، (٢) هو اصطلاح لنا مشينا عليه في التقسيم يأتي بيانه قريباً .

(٣) رواه الترمذي وغيره ، انظر جمع الفوائد وذيله ١ : ١٨ .

وجعلهَا الله علامة على الخضوع له ، فعَصَم بالقيام بها دماءَ المشركين وأموالَهم ، ففي الحديث : « أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله تعالى» [١] .

والمراد بالعبادات الفرعية :

العبادات الأخرى غير الشعائر الكبرى ، سواء أكانت قلبية ، أو بدنية ، أو مالية ، أو جامعة.. كالنية الصالحة ، والصدق والإخلاص والتوكل ، وكقراءة القرآن ، والذِكر والركوع والسجود ، وكالبيع والشراء على الطريقة الشرعية ، واجتناب الربا ، وَكَبِرّ الوالدين وصلة الأرحام .. وغيرها .

والمراد بالعبادات المُلْحَقة :

ما يُلحقه العبد من تصرفاته العادية بالعبادات ، فإنّ تَنَاولَ الطيباتِ والمباحاتِ وإشباعَ الغرائز والشهوات، إنما يمكن تحويله إلى عبادات ، وذلك بتحقق شرط أساسي واحد ، وهو :

« **ملاحظة مطابقة الفعل للحكم الشرعي** » . ونحن نعلم أنه ما من تصرف من تصرفات المكلَّف في هذه الحياة إلا وله حكم شرعي ، فإذا لاحظ العبد في تناوله للمباحات ، وفي قضائه للشهوات: أن يكون هذا التناول موافقاً لما شرع الله من اجتناب الحرام وتحرى الحلال ، أصبح عمله هذا عبادة لله يستحق عليها الثواب .

وإلى هذا يشير قوله ﷺ :

« وفي بُضْع أحدكم صدقة ، قالوا : أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ قالوا : نعم ، قال : كذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » [٢] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم والترمذي .

وعلى هذا : يكون بإمكان كل مسلم في هذه الحياة أن يحول عاداته وأعماله إلى عبادات ، وذلك بأن يلاحظ حكم الله عز وجل فيما يأتي ويذر ، وفي كل تحرك وسكون ، فتكون أعماله كلها عبادةً لله ، ويحقق قول الله عز وجل :

﴿ قل إن صلاتي ونُسُكي ومَحْيَاي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أول المسلمين ﴾[1].

كما أن بإمكانه أن يُسبغَ ثَوبَ العبادة على أعماله العادية ، ويزيد من ثوابها وفضلها وذلك :

بمصاحبة النية الصالحة للعمل العادي ، زيادة على ملاحظته لمطابقة الفعل للحكم الشرعي .

كأن ينوي في تكسّبه وعمله الإنفاق على نفسه وعياله ، والتصدق من ورائه في سبيل الله ، أو ينوي من وراء اتصاله بزوجه إعفافها وإعفاف نفسه عن الحرام ، وطلب الولد لتكثير سواد المسلمين .

أو ينوي من وراء مهنته وصنعته وتخصصه ، تقويةَ المسلمين ، وإغناءَهم عن غيرهم .

فإن هذه النية ليست مُحَوِّلةً للعمل إلى عبادة فحسب ، وإنما تُرقِّيه ، وترتفع به إلى درجات العبادة الرفيعة .

فإن التحويل إلى عبادة يكفي فيه ـ كما مر معنا ـ ملاحظةُ مطابقة العمل

---

(١) ١٦٢ - ١٦٣ الأنعام .

لحكم الله وشرعه ، ولكن النية الصالحة ترتفع به إلى درجة أعلى ومنزلة أسمى [١] .

وعلى هذا يُفهم قوله ﷺ :

« التاجرُ الصَدوقُ الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » [٢] .

ويدل على هذا حديث الشاب الذي رواه الطبراني عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ، قال : مَرّ على النبي ﷺ رجلٌ فرأى أصحابُ رسول الله ﷺ من جَلَده ونشاطه ، فقالوا : يارسولَ الله : لو كان هذا في سبيل الله ؟

فقال : إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يُعفها فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان) [٣] .

ومما يُحوّل أعمال الإنسانِ العاديَّةَ أيضاً إلى عبادة ويزيد من ثوابها : ترتُّبُ الخير والنفع للآخرين عليها ، سواء قصده الفاعل أو لم يقصده ،

---

(١) وقع لبسٌ وتداخل بين الأحوال والشروط في هذا الجانب عند بعض من كتب فيه ، من ذلك جعل الأستاذ القرضاوي هذا التحول مشروطاً بخمسة شروط وهي :

أ ـ أن يكون العمل مشروعاً .

ب ـ أن تصحبه النية الصالحة .

جـ ـ أن يؤدى بإتقان .

د ـ أن يلتزم فيه بحدود الله .

و ـ أن لا يشغله عن واجباته الدينية .

علماً بأن كلاً من الشرط الرابع والخامس يدخل في الأول . وأن الشروط الباقية ليست شروطاً للتحويل وإنما هي للترقي، فلينظر العبادات للقرضاوي ، ص ٦٢ .

(٢) رواه الترمذي وحسنه .

(٣) قال المنذري : رجاله رجال الصحيح .

وذلك : كأن يبني بيتاً فيستفيد الناس من ظله ، أو يخفف ببنائه أزمة سكنية على الناس ، أو يزرع زرعاً فيستفيد منه غيره ...

وإلى هذا يشير قوله ﷺ :

« ما مِنْ مُسلمٍ يَغرِسُ غرساً أو يزرَعُ زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » [1] .

وقد ضرب الأستاذ محمد الغزالي لهذه الحقيقة مثلاً جميلاً فقال :

(إن آلة سَكّ النقود يدخلها المعدن الغُفْل ـ لا علامة فيه ـ فيخرج منها عملة ماليّة غالية الثمن ، تحمل من الألوان والأختام والشارات ما يجعلها شيئاً آخر) .

كذلك المسلم يعالج ما يعالج من شئون الدنيا ، فيضفي عليه من طبيعة إيمانه وسناء وجهته : ما يجعل أيّ عمل يُقبل عليه ، يتحول في يده إلى عبادة غالية القدر) [2] .

٢ ـ تقسيم العبادة من حيث طبيعتها :

يمكن تقسيم العبادة من حيث طبيعتها وتوفر العناصر الثلاثة فيها إلى قسمين أساسين :

(أ) عبادات مُعلَّلة .　　　　(ب) عبادات غير معللة .

أما العبادات المعللة [3]:

فهي العبادات التي تظهر للعبد حكمتها والغايةُ من مشروعيتها ، سواء عن طريق نص الشارع عليها أو إشارته إليها ، أو عن طريق التفكر والتأمل فيها .. وهي ما يعبر عنها العلماء ، بقولهم (إن علتها معقولة المعنى) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) انظر كتاب (هذا ديننا) ص ٨٤ .

(٣) وهذا على مذهب جمهور العلماء القائلين بتعليل الأحكام على خلاف لبعضهم يعرف في كتب العقائد والأصول .

كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد ، وتحريم الغش وبيع الغرر .... فإن هذه العبادات نصَّ الشارع على حكمتها وعلتها ، وأشار إليها في نصوص عديدة تعرف في محالها ...

وهناك عبادات تظهر علتها والحكمة من مشروعيتها عن طريق التفكر والتأمل ، كاستنباط العلماء لعلة تحريم الربا والحكمة من تحريمه ، واستنباطهم لعلة وحكمة تحريم الخنزير . واستنباطهم لحكم وعلل كثير من أفعال العبادات كالقيام والركوع والسجود ..

ومجال التعليل واستنباط الحكم مجال واسع يمكن أن تختلف فيه العقول ، وتتفاوت الأفهام ، ومن هنا قيل : (الحِكَمُ لا تتعارض) .

والذي تجدر الإشارة إليه في هذا المقام : أنه مهما توسع الناس في استنباط العِلل والحِكم ، فلن يستطيعوا أن يحيطوا علماً بحكمة الله العظيمة العالية ، وأنّىٰ للمخلوق أن يحيط بعلم الخالق وحكمته ! !

وأما العبادات غير المعللة :

فهي التي يصفها العلماء بأن علتها « تَعَبُّدية » أي غير معقولة المعنى ، وهي التي لم ينص الشارع على علتها وحكمتها ، وليس بإمكان العقل البشري أن يصل فيها إلى حد تطمئن إليه النفوس في بيان علتها وحكمتها ... فيرجع العلماء فيها إلى حكمتها الأصلية وعلتها الإجمالية وهي : « تَعَبُّدُ الإنسان وتمرينُه على الخضوع الكامل لله سبحانه » .

ومن هنا : كان من عناصر العبادة الأساسية : الخضوع الجسدي الإرادي ، ونمثل لها : بعدد الصلوات الخمس ، وعدد ركعاتها ، وبعض كيفياتها ، وعدد أشواط الطواف والسعي والحصيات ... إلى غير ذلك من أعمال عبادية يصعب على العقل البشري استنباط علتها واستبيان حكمتها ....

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام : أن وصف العبادة (بالتعبدية) أو غيرها أمر اجتهادي لا حرج من الاختلاف فيه .

فقد تختلف العقول في إلحاق عبادة من العبادات بهذا القسم أو ذاك ، تبعاً لاختلاف المدارك والأفهام ، فقد يلحظ عالم شيئاً لم يلحظه غيره ، وقد يهتدي إلى علة وحكمة لم يهتد إليها سواه (١) ..

٤ ـ تقسيم العبادة من حيث حكمُها :

تنقسم العبادة من حيث حكمها إلى ما ينقسم إليه الحكم الشرعي التكليفي من وجوب وحرمة ، وندب وكراهة ، وإباحة ....

فتكون أقسامها من هذه الحيثية خمسةَ أقسام أساسية ـ وذلك بغض النظر عن الخلاف القائم في تعداد أقسام الحكم التكليفي بين الحنفية وغيرهم ، فإنه لا أثر عملياً لهذا الخلاف في هذا المقام ، فتكون أقسام العبادة من حيث الحكم :

١ ـ عبادات واجبة :

وهي جميع ما أوجبه الشارع على العبد من أفعال وتروك : كالأركان الإسلامية الخمسة والجهاد والصدق . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأركان العبادات وشروطها . وترك الكذب والغيبة والنميمة ...

٢ ـ عبادات محرمة :

وهي كل عبادة داخلها محرم من المحرمات . كعبادة غير الله عز وجل . والعبادة المشرك فيها بين الله وغيره . والعبادة التي أريد بها الرياء ... والعبادات التي اختل فيها بعض الأركان أو الشروط ... وصوم الوصال والدهر عند بعضهم ...

---

(١) ومما تحسن الإشارة إليه هنا : أن كثيراً ما يتداخل أمر العلة والحكمة في مقام تعليل الأحكام، فتطلق الحكمة بمعنى العلة ، والعلة بمعنى الحكمة .. وهذا إن جاز في هذا المقام وشبهه ، فلا يصح أن يكون في مقام بيان الأحكام الشرعية واستنباط العلل على الطريقة الأصولية ، فإن التداخل فيه كثيراً ما يسبب أخطاء في الأحكام والنتائج ـ كما حدث لبعضهم في بيان علة الإفطار في رمضان ، وعلة الربا ، فلتتنبه اليه .

٣ ـ عبادات مندوبة :

وهي كل عبادة ندب الشارع إليها ندباً ورغب فيها ترغيباً : كنوافل الصلاة والصيام والصدقة والحج ، وما إلى ذلك من أفعال مندوبة مسنونة ...

٤ ـ عبادات مكروهة :

وهي كل عبادة داخلها مكروه ، كالصلاة الخالية من السنن ، والصلاة التي رافقها فعل مكروه : كفرقعة الصوابع ، والعبث بالثوب ،والصلاة في الأوقات المكروهة وصيام عاشوراء وصيام يوم الجمعة منفرداً ...

٥ ـ عبادات مباحة :

وهي : كل فعل مباح فعله الإنسان على وفق شرع الله ، وبنية صالحة ، كتناول الطعام والشراب والشهوة ، وممارسة الأعمال والصَّنْعات .. وما إلى ذلك مما مر معنا بحثه في قسم العبادات (الملحقة) (١) .

وفي تنوع العبادات إلى هذه الأقسام حكَم عظيمة ، وآثار جليلة نتحدث عنها في بحثنا عن خصائص العبادة .. إن شاء الله .

٥ ـ تقسيم العبادة من حيثُ آثارُها :

تنقسم العبادات من حيث آثارها إلى ثلاثة أقسام وهي :

(أ) عبادات فردية شخصية .

(ب) عبادات اجتماعية عامة .

(جـ) عبادات ذات شبهين .

والمراد بالعبادات الفردية :

العباداتُ التي غلب على طبيعتها جانب الفرد ، وإن كانت لا تخلو من أثر اجتماعي عام .

---

(١) انظر ص ٥٢ من هذا البحث .

وذلك مثل الصلوات الخمس والصيام والحج ، وقراءة القرآن والذكر ، ومعظم الفروض العينية ....

فإن هذه العبادات على عظيم نفعها العام ، فإن الملحوظ في أصل مشروعيتها شخص الفرد المكلف وإصلاحُه وتهذيبه ... فالصلاةُ مثلاً : على مافيها من أثر اجتماعي في تنقية سلوك الأفراد من الفحشاء والمنكر ، وسلامة المجتمع منها ...

فإن الأصل في مشروعيتها تهذيبُ الفرد وإخضاعه لخالقه وصلته به ، وتغذية روحه ... وتكفير سيئاته ومحو خطاياه .

ومن هنا اعتبرناها عبادة فردية ، وقل مثل هذا في كل عبادة فردية ..

والمراد بالعبادات الاجتماعية :

العباداتُ التي غلب على طبيعتها جانب المجتمع ، والنفعُ العام ، وإن كانت لا تخلو أيضاً من أثر فردي على المكلف نفسه .

وذلك مثل الجهاد في سبيل الله ، ومعظم الأحكام الأُسْرية : كالنكاح والطلاق ، والأحكام الدولية : كالمعاهدات والمصالحات ، ومعظم الفروض الكفائية .

فإن هذه العبادات على عظيم أثرها الخاص على المكلف ، فإن الملحوظ في أصل مشروعيتها الأثرُ العام والمصلحةُ الاجتماعية .

فالجهادُ مثلا : على ما فيه من أثر فردي على المجاهد ، من رقي روحي ، وبذل وتضحية وحصولِ الثواب العظيم له ، ووعدهِ بالشهادة .

فإن الأصل في مشروعيته صلاحُ المجتمع وإعلاء كلمة الله فيه :

قال تعالى : ﴿ ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لَهُدِّمت صوامعُ وبيعٌ

وصلواتٌ ومساجدُ ..... ﴾[١]. وقال : **﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكونَ الدينُ كله لله ﴾**[٢].

ومن هنا اعتبرناه عبادة اجتماعية . وقل مثل هذا في كل عبادة اجتماعية ..

والمراد بالعبادات ذات الشبهين :

العباداتُ التي يشكل على المرء إلحاقها بالفردية أو الاجتماعية ، وذلك لعدم وضوح غلبة أحد الجانبين فيها على الآخر ...

وذلك : كالزكاة والصدقات ....

فإنك إذا نظرت إليها من الجانب الفردي الشخصي : رأيتها شرعت تطهيراً وتزكية للمكلف من طغيان حب المال في نفسه ، وإغوائه له ، الذي فطر عليه ، كما أشارت إلى ذلك الآية صراحة : **﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾** .[٣]

وإذا نظرت إليها من الجانب الاجتماعي : رأيتها عاملاً اجتماعياً هاماً ، يحقق الألفة بين الأفراد ، والتعاون بين الطبقات التي لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات . كما أشارت إلى ذلك الآيات :

﴿ وفي أموالهم حقٌ للسائل والمحروم .. ﴾[٤].

﴿ والذين في أموالهم حقٌ معلوم للسائل والمحروم ﴾[٥].

ويصعُب على الباحث بعد ذلك أن يرجح فيها جانباً على جانب لأهميته ، اللهم إلا من حيث ترجيحُ الجانب الاجتماعي على الجانب الفردي مطلقاً .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة الحج .

(٢) الآية ١٩٣ من سورة البقرة .

(٣) ١٠٣ التوبة .

(٤) ١٩ الذاريات .

(٥) ٢٥ المعارج .

ومن هنا جاء في تعليل صدقة الفطر ما يشير إلى الجانبين معاً في وقت واحد ، فقد روى أبو داود وابن ماجه وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال :

(فرضَ رسولُ الله ﷺ صدقةَ الفطر طُهرةً للصائم من اللغو والرفث ، وطُعمةً للمساكين) [١].

وفي ختام الكلام عن أقسام العبادة في الإسلام : نودُّ أن نتطرق ـ ولو بشكل مجمل ـ إلى مسألة هامة كثيراً ما اختلفت فيها الأنظار والأفهام وهي (التفاضل بين العبادات) .

وهي مسألة علمية وعملية طالما ترددت على ألسنة الناس قديماً وحديثاً ، فكم في الصحابة رضوان الله عليهم من طرحها وسأل رسولَ الله ﷺ عنها بأساليب متعددة ، كقولهم : أي العمل أفضل ؟ وأي العمل أحب إلى الله ؟ وهكذا .

وكم عرضها رسول الله ﷺ تلقائياً في مقام الترغيب ببعض الأعمال فقال ، أحب العمل إلى الله كذا وكذا ..

ففي الحديث الشريف :

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » [٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ : أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين ، قلت ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله) [٣]

---

(١) انظر جمع الفوائد ١ : ٣٨٧ .

(٢) ، (٣) متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ : أي العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور) [١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : مَرَّ رجل من أصحاب الرسول ﷺ بشِعْب فيه عُيَيْنَةٌ من ماء عذبة ، فأعجبته ، فقال : لو اعتزلتُ الناسَ فأقمتُ في هذا الشعب ، ولن أفعلَ حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، قال : لا تفعل ، فإن مُقامَ أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ! ؟ اغزوا في سبيل الله ، من قاتل في سبيل الله فواق ناقةٍ وجبت له الجنة) [٢] . إلى غير ذلك من أحاديث كثيرة وفي أبواب متعددة وأساليب متغايرة تثبت تفاضل الأعمال بعضها على بعض .

فمن هذه الأحاديث الشريفة ، ونظرة العلماء فيها من جهة ،وبحثهم في طبيعة الأعمال وغاياتها ووظائفها .. من جهة أخرى .

اختلفت المسالك في تفضيل الأعمال وتقديم بعضها على بعض ..

فمن سالك مسلك تفضيل الأشد والأشق على النفوس .

ومن سالك مسلك تفضيل الواجب على المندوب ، وهكذا .

ومن سالك مسلك تفضيل الأنفع للآخرين ، فقدم العبادات الاجتماعية على الفردية ... إلى غير ذلك من مسالك .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسَن . انظر سنن الترمذي : ٣ : ١٠٢ طـ عبد الرحمن محمد عثمان .

ومن أجود من تكلم في هذه المسألة الإمام ابن القيم رحمه الله ، لعرض أكثر هذه المسالك ، ثم توصل إلى ترجيح مسلك التفضيل حَسْبَ الأحوال والأوقات فقال :

(الصنف الرابع ، قالوا : إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته) .

فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد ، وإن آل إلى تركِ الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار ، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن .. والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً : القيامُ بحقه ، والاشتغال به عن الورْدِ المستحب ،وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .

والأفضل في أوقات السَّحَر : الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء ، والذكر ، والاستغفار .

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل : الإقبالُ على تعليمه والاشتغالُ به ، والأفضل في أوقات الأذان : تركُ ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن ...... وهكذا إلى أن قال :

(فالأفضل في كل وقت وحال : إيثار مرضاةِ الله في ذلك الوقت والحال ، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه) .

إلى غير ذلك من تفصيل في التفضيل ، ومقارنةٍ جميلة بين مسالك العلماء فيه[1] . وهذا هو الحق الواضح في المسألة ، الذي عليه تحمل ظاهرةَ التنوع في إجابات الرسول ﷺ لأصحابه في المسألة ، حيث راعى الأوقات والأحوال والأشخاص .

---

(١) انظر مدارج السالكين ١ : ١٠٠ - ١٠٢ .

(د) خصائص العبادة في الإسلام :

للعبادة في الإسلام خصائص عديدة فريدة يمكن جعلها في صنفين :

(أ) صنفٌ يتعلق بطبيعة العبادة .

(ب) صنف يتعلق بحكمها .

أما الصنف الأول : وهو المتعلق بطبيعة العبادة : فأهمها ثلاث خصائص وهي :

١ ـ خصيصةُ العموم والشمول .

٢ ـ خصيصةُ الاستمرار والدوام .

٣ ـ خصيصةُ السهولة واليسر .

وأما الصنف الثاني : وهو المتعلق بحكم العبادة : فأهمها خصيصتان ، وهما :

١ ـ خصيصة التوقيف .

٢ ـ خصيصة التنوّع .

وسنتناول هذه الخصائص الخمسة بشيء من الإجمال ، فنقول :

١ ـ خَصيصةُ العموم والشمول :

وتتجلى هذه الخضيصة في جانبين :

(أ) جانب أنواع العبادة وأقسامها .

(ب) جانب القائمين بها .

أما الجانب الأول : وهو جانب أنواع العبادة وأقسامها : فقد مر معنا في بحثنا عن أقسام العبادة : أن العبادة شملت أفعال الإنسان القلبية والفكرية والبدنية ، وتناولت جميع العادات والتصرفات البشرية ، وانتظمت جميع علاقات المرء الفردية والاجتماعية .

وقد أشارت النصوص الشرعية إلى هذا العموم والشمول في طبيعة العبادة ، في كثير من المواطن ، من ذلك : قول الله عز وجل :

﴿ ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حُبّه ذوي القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلينَ وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقواوأولئك هم المتقون ﴾[1] .

ومن ذلك قوله ﷺ : « الإيمان بضعٌ وسبعون أو بضعٌ وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان . » [2] .

ومن ذلك : حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يُدخلني الجنة ، ويباعدني عن النار .

قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على منَ يَسّره الله تعالى عليه : تعبدُ الله لا تشركُ به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصومُ رمضان ، وتحجُ البيت .. ثم قال : ألا أدلُّكَ على أبواب الخير ؟ الصوم جُنة ، والصدقةُ تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماءُ النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم تلا : **﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ، جزاءً بما كانوا يعملون ﴾**[3] .

---

(١) ١٧٧ البقرة .

(٢) متفق عليه .

(٣) ١٦ ـ ١٧ السجدة .

ثم قال : ألا أخبرُكَ برأس الأمر وعمودِه وذُروة سَنامه ؟ ! قلت : بلى يا رسول الله ، قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذِروة سنامه الجهاد ، ثم قال : ألا أخبرُكَ بمِلاكِ ذلك كله ؟ فقلت بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه وقال : كُفَّ عليك هذا ، قلتُ : يا نبي الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ ! .. فقال : ثكِلتك أمك ، وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم »[١] .

هذا عن الجانب الأول من جانب العموم والشمول ..

أما الجانب الثاني : وهو جانب القائمين بالعبادة :

فإن العبادة في الإسلام تشمل العباد جميعاً رجالاً ونساءً ، صغاراً وكباراً ، فقراء وأغنياء ، وتعمّ الأحرار والعبيد والحاكمين والمحكومين .. فلا تختص بطبقة من الطبقات ولا بفئة من الفئات ، ومن ثمّ جاء الخطاب بها عاماً شاملاً :

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خَلَقَكُم والذينَ من قبْلكم ... ﴾ [٢]

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خَلَقَكُم من نَفْسٍ واحدة وخَلَق منها زوجها .. ﴾ [٣].

﴿ إن هذه أمتُكم أمةً واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون ﴾ [٤].

﴿ وإن هذه أمتكم أمةً واحدة ، وأنا ربكم فاتقون ﴾ [٥].

وجاء في الحديث الشريف [٦] :

---

(١) رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ، انظر سنن الترمذي : ٤ : ١٢٤ - ١٢٥ ط. عبد الرحمن محمد عثمان.

(٢) ٢١ البقرة .

(٣) ١ النساء .

(٤) ٩٢ الأنبياء .

(٥) ٥٢ المؤمنون .

(٦) رواه مسلم .

« وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين » فقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسُل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ [١].

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ [٢].

هذا عن خصيصة العموم والشمول .

٢ ـ خَصيصةُ الاستمرار والدوام :

العبادة في الإسلام ـ كما نعلم ـ تبدأ بالإنسان من سن التمييز تمريناً له وتعويداً ، ثم يكلف بها في سن البلوغ تكليفاً وتشريفاً ، وتستمر به حتى الموت ..... قال تعالى : ﴿ فسَبِّحْ بحمد رَّبك وكن من الساجدين ، واعبد رَبَّك حتى يأتِيكَ اليقين ﴾ [٣].

قال الإمام القرطبي في تفسيره : (والمراد : استمرار العبادة مدة حياته ، كما قال العبد الصالح ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمتُ حياً ﴾ [٤].

ولا غرابة أن تكون العبادة دائمة مستمرةً ، ما دامت حاجة الإنسان إليها دائمة مستمرة ـ كما سبق بيانه في حديثنا عن ضرورة العبادة للإنسان وحاجته إليها ـ فالصلاة مثلاً ، وهي أم العبادات وعمود الإسلام : تبدأ بالإنسان من سن السابعة وتستمر به حتى الموت ، ولا تسقط عنه إلا بالأعذار الضرورية ، فلا تسقط عن المسافر والمريض ، ولا عن الخائف حتى في ساحات القتال ..

وإذا ما سقطت عن الحائض والنفساء ، فإنما هو سقوط مؤقت ولسبب عارض يتنافى مع حقيقتها وطبيعتها ....

---

(١) ٥١ المؤمنون .

(٢) ١٧٢ البقرة .

(٣) ٩٨ ـ ٩٩ الحجر .

(٤) تفسير القرطبي ١٠ : ٦٤ في سورة مريم ٣١ .

والصيام : كذلك لا يسقط عن المرء إلا إذا عجز عن القيام به ، ويؤجل عن المريض والمسافر تخفيفاً ورفعاً للحرج من جهة ، ولعدم تحقق وظيفته كاملة بالنسبة للمسافر المشغول بسفره من جهة أخرى .

وعلى هذا يمكن أن ينزِّلَ تعليلُ الاختلافِ في أفضلية الصيام للمسافر أو عدمه كما هو معلوم عند الفقهاء ، وقولهُ ﷺ :

« ليس البر أن تصوموا في السفر » (١) ،وسقوطُ وجوب الزكاة عن الفقير الذي لا يملك نصاباً حال عليه الحول ، وتقييدُ وجوبِ الحج بالاستطاعة .

وإلا فالعبادة دائمة مستمرة مع الإنسان مادام في الإنسان حياة ، ومن هذه الخصيصة يظهرُ ضلال أولئك الذين يدّعون سقوط التكاليف والعبادة عنهم بسبب قربهم المزعوم من ربهم ، واستغنائهم عنها لتحقق وظيفتها في نفوسهم .. فلم يعودوا بحاجة إليها ﴿ **كَبُرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كَذباً** ﴾ (٢) .

ولو جاز سقوط التكليف عن عبد من العباد ، أو كان سقوطه تكريماً وتشريفاً واستغناء ، لأسقطه الله عن أنبيائه وأصفيائه ، ولكنه أمر سيد ولد آدم بالاستمرار فيها فقال : ﴿ **واعبُدْ ربَّك حتى يأتيك اليقين** ﴾ (٣) .

٣ ـ خصيصةُ السهولة واليسر :

العبادة في الإسلام سهلةٌ مُيسَّرة لأنها من وضع العليم الرحيم ، ولأنها شرعت من أجل سعادة المرء وخيره في الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ **طه ، ما أنزلنا عَلَيْكَ الْقُرآن لتشقى إلا تذكرةً لمن يخشى ، تنزيلاً ممن خَلَق الأرضَ والسمواتِ العُلا ، الرحمنُ على العرش استوى** ﴾ . (٤)

---

(١) متفق عليه .

(٢) ٥ الكهف .

(٣) ٩٩ الحجر .

(٤) ١ ـ ٥ طه .

وقال ﷺ : « بعثتُ بالحنيفيّةِ السّمْحَة »[1] .

ومن هنا كان من المقاصد الأساسية للشريعة الإسلامية رفعُ الحرج ودفع المشقة عن العباد ، قال تعالى :

﴿ الذين يَتّبِعون الرسولَ النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويُحِلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائثَ ، ويَضَعُ عنهم إصْرَهم والأغلالَ التي كانت عليهم .. ﴾[2] .

وقد أكد الله هذه الخاصية بعد أن أمر عباده بالأوامر فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبُدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، وجاهدوا في الله حَقّ جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حَرَج ، مِلّةَ أبيكم إبراهيم .. ﴾[3]

كما عقب الآيات الموضحة لأحكام الطهارة بقوله :

﴿ ... ما يريد الله ليَجْعَلَ عليكم من حرج ، ولكن يريد ليُطهرَكم وليُتِمّ نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾[4] .

كما قال عقب آيات الصيام :

﴿ يريد الله بكم اليُسْرَ ولا يريد بكم العسر ... ﴾[5] .

و جاء في حديثه ﷺ ما يبين طبيعة هذا الدين ، ويؤكد هذه الخاصية :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال « إن الدين يُسر ، ولن

---

(١) رواه أحمد .

(٢) ١٥٧ الأعراف .

(٣) ٧٧ ـ ٧٨ الحج .

(٤) ٦ المائدة .

(٥) ١٨٥ البقرة .

يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والرَوْحة وشيء من الدُلْجة »[١] .

وفي نهيه ﷺ بعض صحابته عن التشدد في العبادة ، وأمره بالاعتدال والتوسط فيها ، أكبر دليل على المحافظة على هذه الخصيصة من خصائص العبادة [٢] .

٤ ـ خصيصةُ التوقف :

والمراد بها : أن شرع العبادة في الإسلام موقوف على الله والرسول ، وليس لأحد أن يزيد فيها ولا ينقص منها من عند نفسه .

قال تعالى في سورة الشورى :

﴿ شَرَعَ لكم من الدين ما وَصَى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصَّيْنا به ابراهيمَ وموسى وعيسى : أن أقيموا الدينَ ولا تَتَفرقوا فيه ، كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يَجْتبي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من يُنيب ﴾ [٣] .

وقال فيها : **﴿ أم لهم شركاءُ شَرَعوا لهم من الدين ما لم يَأْذن به الله ، ولولا كلمةُ الفَصْل لَقُضِيَ بينهم ، وإن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾** [٤] .

وقال في سورة المائدة :

﴿ ما جعل الله من بَحيرةٍ ولا سائبة ولا وَصيلة ولا حامٍ ، ولكنَّ الذين

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان (باب الدين يسر) انظر صحيح البخاري ١ : ١٥ ط الاستانبولية .

(٢) انظر كتاب رفع الحرج في الشريعة الإسلامية لعدنان محمد جمعة . والعبادة للقرضاوي من ص ١٨٦ ـ ٢٠٠ .

(٣) ١٣ الشورى .

(٤) ٢١ الشورى .

كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون ﴾ [١] .

فهذه الآيات الكريمة بينت ثلاثة أمور :

(أ) أن مصدر التشريع ، والشارع وحدَه على مدى الأزمان ومختلف الرسالات إنما هو الله سبحانه وتعالى .

(ب) وأن الكافرين اتخذوا لله شركاء شرعوا لهم من عند أنفسهم ما لم يأذن به الله .

(جـ) وأن ما عليه المشركون من أعمال يفعلونها ، ويزعمون أنها عبادات : كالبحيرة [٢] والسائبة [٣] ، والوصيلة [٤] ، والحامي [٥] – إنما هي من شرع الله ، وما لم يأذن به الله ، وكذب وافتراء عليه سبحانه .

ومن هذا نعلم : أن حق التشريع حق خاص بالله سبحانه موقوف عليه ، وأنه ليس لبشر أن يشرع من عند نفسه شرعاً أو عبادة ، كما أنه ليس لمتعبد أن يعبد الله إلا بما شرع الله .

﴿ فمن كان يَرجو لقاء ربه ، فليعملْ عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ [٦].

ولا غرابة في قصر حق التشريع على الله وحده ، لأنه المتعبِّد الذي خلق العباد لعبادته وهو أعلم بما يتعبدهم به ، وأخبر بما يصلح لهم من عبادات وما يرضيه من أعمال ... ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [٧] .

---

(١) ١٠٣ المائدة .

(٢) البحيرة : الأنثى من الحيوان التي يُمنع درها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس .

(٣) والسائبة : ما يُسيِّبه المشركون لآلهتهم ، فلا يُحمل عليها شيء .

(٤) والوصيلة : الناقة البكر التي تلد أنثى ، وتصلها بأنثى أخرى ليس بينهما ذكر ، كانوا يسيبونها للطواغيت .

(٥) والحام : فحلُ الإبل يَضربُ الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرابه ، وَدَعُوه للطواغيت ، وأعفوه عن الحمل فلم يحمل عليه شيء ، وسموه (الحامي) انظر صحيح البخاري في تفسير سورة المائدة ٥ : ١٩١ طـ الاستانبولية .

(٦) ١١٠ الكهف . (٧) ١٤ الملك .

ولو ترك الناسَ وشأنهم في اختيار أنواع العبادات ، لخبطوا فيها خبط عشواء ، وهذا مظهر من مظاهر نعمة الله في إكمال دينه ، وإتمام نعمته ، وحكمة إرسال رسله ، وإنزال كتبه ... فسبحانه من حكيم عليم .

وهذه الخصيصة التوفيقية ، متفق عليها بين العلماء جميعا ، على الرغم من اختلاف حدث في مفهومها وحدود تطبيقها - لا مجال للتفصيل فيه هنا - وذلك مثل فعل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في جمع الناس على صلاة عشرين ركعة في التراويح ، وفعل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في زيادته على لفظ التلبية [١] .

وهذا الاتفاق عائد إلى توافر الأدلة عليها ، وتضافرها على الأمر بالاتباع وذم الابتداع ..

من ذلك قوله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ، ومن عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » [٢] .

وقوله : « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضّوا عليها بالنواجز ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة» [٣] .

وقوله في شأن الصلاة: « صلوا كما رأيتموني أصلي »[٤].

وقوله في شأن الحج : « خذوا عني مناسككم » [٥] .

ومن هنا قال الإمام ابن تيمية (رحمه الله) : (وجماع الدين أصلان : (أ) أن لا نعبد إلا الله . (ب) ولا نعبده إلا بما شرع . لا نعبده بالبدع ...) [٦].

(١) انظر تفصيلاً في تبيين معنى البدعة وحدودها في كتاب (الاعتصام) للإمام الشاطبي ، وفي كتاب : (إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة) للعلامة اللكنوي وغيرهما ...

(٢) رواه مسلم وغيره .

(٣) رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

(٤) رواه البخاري .

(٥) رواه النسائي .

(٦) العبودية ١٧٠ ـ ١٧١

وقد رويت أقوال عديدة مفيدة عن بعض الصحابة والسلف الصالح تؤكد هذه الخصيصة ، وتحذر من الابتداع ، لا نطيل بذكرها [١]

٥ ـ خصيصةُ التنوع :

ونريد بها : تنوع العبادات إلى أنواع متعددة من حيث حكمها ، تبعاً لأقسام الحكم التكليفي ، وقد مر معنا تفصيل هذه الأنواع في بحثنا لتقسيم العبادة من حيث حكمها ..

والذي يهمنا هنا ونحن نتحدث عن هذه الخاصية : أن نشير إلى حكمة الله في تنوع هذه العبادات ، وعدم صبغها جميعها بصبغة الإلزام ، فقد نوع الشارع أشكال العبادة ، وجعلها دائرة بين الإلزام والندب والتخيير ، وذلك توسعةً عليهم ، ودفعاً للحرج عنهم ، ومراعاة لأحوال نشاطهم وكسلهم من جهة ، وزيادةً في الابتلاء والاختبار لهم من جهة أخرى .

ففتح لهم باب المباحات توسعةً عليهم ، وجعل لهم دائرة المندوب والمكروه تخفيفاً عنهم ، وزيادة في الابتلاء والاختبار ، فكانت هذه الأنواع سترة بينهم وبين الحرام ومما لاشك فيه ، أن الابتلاء والاختبار إنما يكون في الأحكام غير الإلزامية كالمندوب والمكروه ـ أوضح منه في الأحكام الإلزامية ـ كالواجب والحرام .. إذ أن امتثال المرء للواجبات ، واجتنابه المحرمات أقربُ إلى نفسه الضعيفة وأهونُ عليها ، وذلك هرباً من العقاب ...

فإذا قوي إيمان المرء ، وحَسُنَ تفهمُه للتشريعات الربانية ، وأيقن أن الأحكام جميعها بواجبها ومندوبها ، وحرامها ومكروهها إنما هي لمصلحته وحدَه ، ولسعادتِه في الدنيا والآخرة ، إذا أصبح هذا شأنه ، فلا يرضى عندئذ أن يقف عند حدود فعل الواجبات ، بل يتعداها إلى المندوبات ، كما لا يرضى أن يقتصر على

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب العبادة للقرضاوي من ص ١٦٥ ـ ١٧٤ .

اجتناب المحرمات ، بل يحرص على الابتعاد عن المكروهات أيضاً ..

وهذا ميدان فسيح يتميز فيه القوي على الضعيف ، والموقن على المرتاب .... وإلى هذا يشير الحديث القدسي :

« وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضتُه عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه .... » [1] الحديث .

هذا عن خصائص العبادة في الإسلام ، والمطّلع على العبادات في الديانات الأخرى يعلم إلى أي مدى خصَّ الله هذه الأمة بخصائص وكرمها ...

وما ذاك إلا لأنه اختار هذه الرسالة ، لتكون خاتمة الرسالات ، فجعلها صالحة للحياة في كل زمان ومكان ، تستوعب النشاطات الإنسانية جميعها ، وتحكُم البشرية إلى أن يرث الله الأرض وما عليها ....

أما غيرها من الأمم ، فكثيراً ما كانت التشريعات فيها والعبادات ، تأتي ملاحظةً طبيعتها الخاصة بها وحاجتَها ، أو معالجةً لأحوالها الخاصة ومشاكلها .. كما يشير إلى ذلك قوله تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ من الذين هادُوا حَرَّمنا عليهم طيباتٍ أُحِلَّت لهم ، وَبِصَدِّهم عن سبيل الله كثيراً ﴾ [2]

وقوله تعالى :

﴿ وعلى الذين هادُوا حرمنا كلَّ ذي ظُفُر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومَهما إلا ما حَملت ظهورُهما أو الحوايا ، أو ما اختلط بعظم ، ذلك جَزَيْناهم بِبَغْيِهم ، وإنا لصادقون ﴾ [3]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب التواضع رقم / ٦٥٠٢ /

(٢) ١٦٠ النساء .

(٣) ١٤٦ الأنعام .

(هـ) وظيفةُ العبادة في الإسلام :

تتجلى وظيفة العبادة في الإسلام في كثير من النصوص الشرعية المفصحة عنها ، وفي تتبع آثارها في حياة الناس ، وإننا من تفهمنا لطبيعة العبادة وحاجة الناس إليها يمكننا إجمالُ وظيفتها وتبيُّنُ آثارها في وظيفتين : وظيفة فردية ، ووظيفة اجتماعية .

أما الوظيفة الفردية : فيمكننا بحثها في جانبين :

جانب يتصل بعلاقة العبد مع الله ، وجانب يتصل بعلاقته بنفسه .

أما الجانب الأول : وهو المتصل بعلاقة العبد مع الله : (فهو تحقيقُ عبوديته لله عز وجل وتقريبه منه) .. فإن العبادة تقوّي صلته بخالقه ، وتُنَمّـي الحبَّ بين العبد وربه ، وتؤهله لحب الله له ، وتُشعر المرء برضا الله عنه .. فليست العبادة كلمةً تُقال ، ولا طقوساً مجردةً تؤدى ، ولا حالاً تعرض وتزول ... وإنما هي اتباع نابعٌ عن حب وشعورٍ بالحاجة إلى رضا الله عز وجل .

وهذا معنى قول الحسن رضي الله عنه : ليسَ الإيمان بالتمني ولا بالتحلّي ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل)[1] .

وإلى هذا يشير قول الله عز وجل :

﴿ ليس البر أن تُولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ، ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المالَ

---

(١) قال المناوي ، قال العلائي : حديث منكر ، تفرد به عبد السلام بن صالح العابد ، قال النسائي متروك ، وابن عدي : مجمعٌ على ضعفه ، وقد روي معناه بسند جيد عن الحسن من قوله ، وهو الصحيح ، انظر فيض القدير : ٥ : ٣٥٦ .

على حُبِّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقامَ الصلاة وآتى الزكاة والمُوفُون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرينَ في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صَدَقوا وأولئك هم المتقون) . [١]

ومن هنا : كانت العبادة في الإسلام سبيلاً لنيل حب الله وبلوغ رضاه ......

﴿ قل إن كنتم تُحبّون الله فاتبعوني يُحْبِبْكم الله ويَغْفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم ، قل أطيعوا الله والرسول ، فإن تَوَلَّوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ [٢].

وفي الحديث الصحيح « وماتقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببتُه ، كنت سمعه الذي يسمعُ به ، وبصره الذي يُبْصر به ، ويده التي يبطِشُ بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه ... الحديث) [٣].

وأما الجانب الثاني المتعلق بالعبد نفسه :

فإن العبادة في الإسلام تُهذِّبُ له نفسه وتُزكيها ، وترقّي له روحه وتُنمّيها ، وتوسع له أفقه وتفكيره ، وتصحح له سلوكه وتُنقيه ...

وكثيراً ما أشارت النصوص الشرعية إلى هذه الوظيفة الفردية للعبادة ، من ذلك قول الله عز وجل :

﴿ وَأَقِمِ الصلاةَ طَرَفي النهار وَزُلَفاً من الليل ، إن الحسناتِ يُذْهِبْنَ

---

(١) ١٧٧ البقرة .

(٢) ٣١ ـ ٣٢ آل عمران .

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق رقم ٦٥٠٢ .

السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ [١] .

﴿ وأقِمِ الصلاةَ إن الصلاةَ تنهى عن الفحشاء والمنكر ... ﴾ [٢] .

﴿ إن الانسانَ خُلِقَ هلوعاً ، إذا مَسَّه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلِّينَ ، الذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين في أموالهم حقٌ معلوم للسائل والمحروم ... الآيات ﴾ [٣] .

﴿ خُذْ من أموالهم صَدَقةً تُطَهِّرَهم وتُزكِّيهم بها ﴾ [٤]

ومن ذلك ما جاء في الحديث :

« فرضَ رسول الله ﷺ زكاةَ الفطر طُهرةً للصائم من اللغو والرفث ، وطعمةً للمساكين » [٥] ، وجاء « الصومُ جُنّةٌ ما لم يَخرِقْها » . [٦]

فهذه النصوص وأمثالها كثير : تشير إلى أثر العبادة في الإنسان ، وتبَين وظيفتها الفردية في العبد ، فتجعله إنساناً مهذباً ، متوازناً بين متطلبات الروح والجسد ، قوياً لا يهاب ، صبوراً لا يجزع ، صدوقاً لا يكذب ، أميناً لا يخون ...

كما يعرف تفصيله في آثار كل من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها في سلوك الإنسان .

أما الوظيفة الاجتماعية للعبادة :

فتتجلى في آثار الوظيفة الفردية للعبادة ، التي تجعل من الفرد عضواً صالحاً

---

(١) ١١٤ هود .

(٢) ٤٥ العنكبوت .

(٣) ١٩ ـ ٣٤ المعارج .

(٤) ١٠٣ التوبة .

(٥) رواه أبو داود وابن ماجه والدارقطني والحاكم ، وقال : صحيح على شرط البخاري .

(٦) رواه النسائي بإسناد حسن ، وابن خزيمة في صحيحه .

في المجتمع ، يصلح بصلاحه ـ كما رأينا سابقاً ـ ،كما تتجلى في آثار العبادة التي تعود على المجتمع عامة بالخير والنفع ، وما من عبادة في الإسلام فرديةً أو اجتماعيةً إلا ولها أثر في المجتمع قل أو كثر ، خفي أو ظهر .

وإن كانت الوظيفةُ الاجتماعية ، والآثار العامة إنما تبرز أكثر وأكثر في العبادات الاجتماعية .. وقد سبق أن أشرنا إلى الفرق بينهما في بحثنا لأقسام العبادة من حيث آثارها .

فالصلاة ، وهي عبادة فردية تصل العبد بربه ، وتقوي صلته به ، وتحقق عبوديته له ، ولها مع ذلك وظيفةً اجتماعية أخرى ، وهي :

تنظيف سلوك الفرد والمجتمع ، وتنقيتُه من الفحشاء والمنكر ... وذلك بما تزرعه في نفس المصلي من صلة بالله ، ومراقبةٍ له ، وخشيةٍ منه ، ومن هنا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .. كما صرحت بذلك الآيات ...

وجاء في الحديث : « مَنْ لم تَنْهَهُ صلاتُه عن الفحشاءِ والمنكر ، لم يزدَدْ من الله إلا بُعداً » [1] .

وقل مثل هذا : في الصيام والحج والعفاف والصدق ...

والحجاب :

وهو عبادةٌ اجتماعية ، تحفظُ المجتمع من الفتنة بالنساء التي أشار إليها رسول الله ﷺ بقوله : « ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء » [2] . وتحفظه من أثر النظرة المحرمة التي تفعل فعلها في قلوب الرجال ، وترهق أعصاب الشباب والمراهقين ... كما تحفظه من انتشار الفحشاء ، التي يعتبر السفور والتبرج أكبر مساعد على وجودها وانتشارها ...

---

(١) رواه أحمد في الزهد عن ابن مسعود موقوفاً ، ورواه ابن جرير عنه مرفوعاً ، انظر كشف الخفاء ٢ : ٣٨٢ ، كما رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً، مع اختلاف قليل في اللفظ . انظر جمع الفوائد ١ : ١١٩ ، المطبعة الخيرية .

(٢) متفق عليه .

فإن للحجاب مع هذه الوظيفة الاجتماعية ، وظيفة فردية أخرى : وهي المحافظة على عفة المرأة وحيائها في نفسها الذي جُبلت عليه ، وتميزت به على الرجال ، فالحجاب يحفظ عليها ذلك الحياء ، ويصونها من أعين الشر والفتنة التي لا تخلو منها المجتمعات البشرية .

ولاشك أن المحافظة على الحياء والعفاف مقصدٌ أساسي من المقاصد الاجتماعية والفردية ...

ومن الغفلة عن هاتين الوظيفتين للحجاب أو عن إحداهما : وُجِدَ التساهلُ في الحجاب ، وانطلق بعض الناسِ يقول :

إن المرأة الشريفة لا يلزمها الحجاب ولا يفيدها ، والمرأة الفاسدة لا يُصلحها الحجاب ولا يحجزها عن الفساد ... فليس للمرأة حاجةٌ إليه .. إلى غير ذلك من أخطاء وأوهام ، ولو فهم الرجال والنساء على السواء حقيقة وظيفة الحجاب ، وعلم أثره الفردي والاجتماعي لما رأيت امرأة تتساهل في أمره ، ولا رجلاً يدعو إلى التهاون فيه .

وكذلك الجهاد :

وهو من أكبر العبادات الاجتماعية وأهمها ، فإنه يؤدي في الناس الوظيفتين معاً ، فهو : يحقق المحافظة على إقامة الشعائر التعبدية في حياة الناس ، ويدفع عنهم الفساد كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة : ﴿ ولولا دفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ ، لَهُدِّمَتْ صَوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسم الله كثيراً ... ﴾ [1] .

وقوله تعالى : ﴿ ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لَفَسَدَتِ الأرض ،

---

(١) ٤٠ الحج .

ولكنَّ الله ذو فضلٍ على العالمين ﴾ [١].

كما يحقق إعلاء كلمة الله في الأرض ، ويقضي على الفتن :

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ، ويكونَ الدينُ لله ﴾ [٢]

ويدفع الذل والهوان عن المؤمنين ، كما جاء في الحديث :

« إذا تَبَايعتم بالعِيْنَةِ ، وأخذتُم أذنابَ البقر ، ورَضِيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا يَنْزِعُه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم ﴾ . [٣]

إلى غير ذلك من خصائص اجتماعية .

كما أنه في الوقت نفسه يحقق للعبد المجاهد وظائف فردية ، فيقربه إلى الله ، ويؤهله لمغفرته ورضوانه ، وينيله الشهادة في سبيله ، ويجعله في الدرجات العلا .

ومن هنا جاء في الحديث :

« مقَامُ الرجل في الصف في سبيل الله ، أفضلُ من عبادته ستين سنة » [٤].

وإلى أثر الوظيفتين معاً في الجهاد أشار قول الله عز وجل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أَدُلُّكم على تجارة تُنْجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يَغْفِرْ لكم ذنوبكم ويُدخلْكُم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبةً في جناتِ عدنٍ ، ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تُحِبُّونها نصر من الله وفتح

---

(١) ٢٥١ البقرة .

(٢) ١٩٣ البقرة .

(٣) رواه أبو داود ، انظر جمع الفوائد ٢ : ١٧ .

(٤) رواه الطبراني في الكبير والأوسط وغيره ، انظر جمع الفوائد ٢ : ٩ .

قريب ، وبَشِّر المؤمنين ﴾ [١]

هذا عن وظيفة العبادة في الإسلام ، وإن أي تضييع لجانب من جوانب هذه الوظيفة أو غفلة عنها ، يعتبر تضييعاً لحقيقة العبادة ، وتحويلاً لها عن حقيقتها ..

ومن هنا جاء :

« مَنْ لم تَنْهَهُ صلاتُه عن الفحشاء والمنكر ، لم يَزْدَدْ من الله إلا بعداً ... » [٢]

« وَمَنْ لم يَدَعْ قولَ الزورِ والعملَ به ، فليس لله حاجةٌ في أن يَدَع طعامه وشرابه .. » [٣]

« رُبَّ قائم حظُّه من قيامه السَّهر ، وربَّ صائم حظُّه من صيامه الجوع والعطش » [٤]

☆ ☆ ☆

---

(١) ١٠ ـ ١٣ الصف .

(٢) رواه أحمد في الزهد موقوفاً عن ابن مسعود ، وابن جرير عنه مرفوعاً ، كشف الخفاء ٢ : ٣٨٢ .

(٣) للبخاري وأبي داود والترمذي . جمع الفوائد ١ : ٤١٥ .

(٤) رواه الطبراني وغيره ، قال الحافظ العراقي : إسناده حسن ، وقال تلميذه الهيثمي : رجاله موثقون ، انظر فيض القدير ٤ : ١٦ وانظر جمع الفوائد ١ : ٤١٥ .

٣) الخاتمة :

وتشتمل على نقطتين :

(أ) واقع العبادة في حياة الناس .

(ب) سبيل علاج هذا الواقع .

(أ) واقع العبادة في حياة الناس :

بعد أن عرفنا حقيقةَ العبادة في الإسلام وطبيعتها ، وتبينّا ضرورتها ووظيفتها ، وتناولنا أقسامها وخصائصها ...

آن لنا أن نتعرف على واقعها في حياة الناس ، لنرى مدى تطابق الواقع العملي مع حقيقتها ...

وليس يخفي أن المسلمين قد ابتعدوا في واقعهم عن حقيقة العبادة في الإسلام ، تبعاً لابتعادهم الكبير عن دينهم ، وإعراضهم عن هدي ربهم .

ولعل أبرز مظاهر هذا البعد تتجلى في ثلاثة جوانب :

١ ـ جانب الخطأ والتحول في مفهوم العبادة .
٢ ـ جانب الضياع لوظيفتها .
٣ ـ جانب الإعراض عنها وعدم الاهتمام بها .

أما الجانب الأول : وهو جانب الخطأ والتحول في مفهوم العبادة :

فيظهر في عدة أمور :

(أ) في حصر مفهوم العبادة في معناها الخاص ، وهو « القيام بالشعائر التعبدية » وانحساره عن المعنى العام الشامل لكل عمل من أعمال العبد ، والمنتظم لكل علاقة من علاقاته ...

فقد فهم كثير من المسلمين العبادة أعمالاً تتعلق بصلة العبد بخالقه ، كصلاته وصيامه ، وزكاته وحجه ، وفصلوا بينها وبين غيرها من العلاقات الأخرى ، كعلاقته بنفسه وعلاقته مع الناس من حوله ....

فما كان من التصرفات والأعمال بين العبد وربه اعتبروه عبادةً ، وخضعوا فيه

للأحكام الشرعية ، وما كان غير ذلك اعتبروه من الأعمال الدنيوية والتصرفات الشخصية التي لا يُرجَع فيها إلى دين ، ولا يُحكَّم فيها شرع .

وأصبح كثير منهم إذا ما سمع لفظة العبادة في آية أو حديث ، انصرف ذهنه إلى الصلاة والصوم والزكاة والحج فحسب .

وهذا المفهوم الضيق عن العبادة ، وهذا الحصر له بالشعائر التعبدية والطقوس الدينية ، يشبه إلى حد كبير مفهوم المشركين للعبادات التي كانوا يمارسونها ، والطقوس التي يؤدونها لأصنامهم وآلهتهم ...

فكانوا يقولون : ﴿ مانَعْبُدُهم إلا لِيُقَرِّبونا إلى الله زُلْفَى ﴾ [1] .

ومن هنا استشكل عديّ بن حاتم رضي الله عنه معنى قول الله عز وجل في اليهود والنصارى : ﴿ **اتَّخَذوا أحبارَهم ورُهبانَهم أرباباً من دون الله ، والمسيحَ ابن مريم ، وما أُمِروا إلا ليعبُدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ [2] .

فقال عدي : إنهم لم يعبدوهم ـ أي لم يقدموا لهم الشعائر والطقوس ـ فأوضح له الرسول ﷺ أن عبادتهم لهم إنما هي اتباعهم ، فقال :

« إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » [3] .

وقد علل الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ اختلال هذا المفهوم تعليلاً قوياً ، فقال : « إنما أُطلقت لفظةُ العبادة على الشعائر التعبدية باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من الشئون ، صورة لا تستغرق مدلول العبادة ، بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة .

---

(١) ٣ الزمر .

(٢) ٣١ التوبة .

(٣) رواه أحمد والترمذي وغيرهما ، انظر تفسير ابن كثير ٤ : ٧٧ .

فلما بَهَتَ مدلول الدين ، ومدلول العبادة في نفوس الناس ، صاروا يفهمون : أن عبادة غير الله التي يخرج بها الناس عن الإسلام إلى الجاهلية هي فقط ، تقديم الشعائر التعبدية لغير الله ، كتقديمها للأصنام والأوثان مثلاً ..

وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية ، وأصبح مسلماً لا يجوز تكفيره ، وتمتع بكل ما يتمتع به المسلم في المجتمع المسلم من صيانة دمه ، وعرضه وماله .. إلى آخر حقوق المسلم على المسلم ..

ثم قال : وهذا وهم باطل ، وانحسار وانكماش بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ العبادة ... ثم قال : والواقع : « أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ، ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات ، وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان .. » [١]

كما أشار إلى أثر الاصطلاح الفقهي في تقسيم النشاط الإنساني إلى عبادات ، ومعاملات ، في تحول هذا المفهوم ، مع أنه كان في أول الأمر مجرد تقسيم فني علمي .. [٢]

(ب) في قصر معنى العبادة عملياً على بعض المعاني اللغوية لها ، والتي استعملها فيها القرآن الكريم ، وقد سبق أن مر معنا في المقدمة أنها استعمالات أربعة أساسية وهي :

١ ـ استعمالها في معنى العبدية والطاعة معاً .

٢ ـ استعمالها بمعنى الطاعة فقط .

٣ ـ استعمالها بمعنى التأله .

٤ ـ استعمالها بكل المعاني في وقت واحد .

---

(١) في ظلال القرآن ٤ : ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ .

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، ص ١٢٩ .

ومن مظاهر هذا القصر لمعناها :

استبعادُ معنى التأله من مفهوم العبادة ، وقصره على الطاعة والخضوع ، حيث أوقع الناس في بعض مظاهر الشرك ، واعتقاد الخرافات ، والعياذ بالجن والشياطين . مع المحافظة على الصلاة والصيام والزكاة والحج .. وغيرها من الأحكام ... وهذا كثير جداً في حياة المسلمين .

ومن مظاهره أيضاً :

إشراك غير الله عز وجل مع الله في معاني العبادة ، دون أن يستشعر المرء مناقضة ذلك للعبودية ، كإشراك غير الله في الطاعة والاتباع ، سواء أكان المشْرَكُ به زوجة أو ولداً أو حاكماً أو شيطاناً ، علماً بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

ومن مظاهر ذلك أيضاً :

صرف الهمة لغير الله ، وتفضيل أمره على أمر الله ، كحب الناس للدنيا ، وعبادتهم للشهوات والغرائز ، دون أن يشعروا بقدح هذا في العبودية وتأثيره عليها .

وإلى هذا أشار الرسول ﷺ بقوله :

« تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار ... » [1]

ومنه حذر الله عز وجل فى كتابه فقال :

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشونَ كسادها ومساكنُ تَرْضونها أحبَّ

---

(١) رواه البخاري وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعا ، انظر كشف الخفاء ١ : ٣٦٦ .

إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله ، فتربَّصوا حتى يأتيَ الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [١].

وإن هذا الاختلال في مفاهيم العبادة في الإسلام يهدد أعظم أساس في بناء الإسلام بعد الإيمان بالله عز وجل ، وذلك بتشويه صورة العبادة التي أرادها الله ، وخلق الإنسان من أجلها . وانصراف المسلمين عنها إلى مفاهيم ضيقة قاصرة ، لا تحقق غاية العبادات ، ولا تترك آثارها في حياة الناس ...

وفي هذا يقول الأستاذ المودودي ـ رحمه الله :

(ومن ثمَّ : إن حصر معاني كلمة العبادة في معنى بعينه ، في الحقيقة حصرٌ لدعوة القرآن في معانٍ ضيقة ، ومن نتائجه المحتومة أن من آمن بدين الله وهو يتصور دعوة القرآن هذا التصور الضيّق المحدود ، فإنه لَنْ يَتْبَعَ تعاليمه إلا اتباعاً ناقصاً محدوداً .. » [٢] .

هذا عن جانب الخطأ والتحول في مفهوم العبادة ،

أما الجانب الثاني : وهو جانب الضياع لوظيفتها :

فقد أصبحت العبادة في واقع المسلمين بعد ذلك التحول الخطير في مفهومها ، أشبه ما تكون بأعمال لا شعورية ، وطقوس لا أثر لها في حياتهم ، حيث ضاع كثير من وظائفها الفردية والاجتماعية ...

وإذا كان الأصل في المسلم أن تنقلب عاداته إلى عبادات ـ كما سبق أن بينا في حديثنا عن العبادات الملحقة – فإن واقع المسلمين اليوم حول عبادات المسلم إلى عادات ، وفَرْقٌ كبير بين أن يعتاد المرء العبادة ، فتصبح جزءاً من حياته وسلوكه وطابع تحركه ، وبين أن تغلب عليها العادة فتفقدها صفة العبادة ، وتحولها عن وظيفتها ، وتعرضها بعد ذلك للتغير والزوال ..

---

(١) ٢٤ التوبة .

(٢) انظر المصطلحات الأربعة ، ص ١١٥ .

ويرى المتتبع لهذه الظاهرة في حياة المسلمين أنها عمّت الكبار والصغار ، والنساء والرجال ، والأفراد والجماعات ... كما شملت العبادات على مختلف أشكالها وتفاوت درجاتها ...

فلم يقتصر أثرها على بعض النوافل والمندوبات ، ولا على بعض المظاهر والشعائر ، بل تعداها إلى كثير من الواجبات الإسلامية والأركان الأساسية .

فبعد أن كان المرء يحسب للفظ الشهادتين كل حساب ويشعر ـ وهو يتلفظ بهما ـ بالخشوع والخضوع ... أصبح يكررها مئات المرات ، ويجعلها ورداً من أوراده ، دون أن تترك في نفسه أثراً ، ولا في سلوكه مظهراً .

وكم من مستغفرٍ لله عز وجل وهو متلبس بمعصيته ، مصرٌّ على مخالفته ، لا يجاوز الاستغفار لسانه !!

وكم من مسبح وحامد وشاكر لله عز وجل بلسانه ، وهو غافل عن نعمه ، ومستعملٌ لها في غير مرضات ربه .. !!

وكم تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه .. !!

والصلاةُ التي كانت قرةَ عيون المؤمنين ، ومعراجَ المتقين ... أصبحت عند كثير من المصلين عبارةً عن حركات منتظمة ، تفتقد الخشوع والطمأنينة ، وتتجرد عن الفائدة والتأثير ...

والزكاة التي شرعت طُهرةً للقلوب من حب المال ، وتزكيةً للنفوس من طغيانه ... أصبحت عند كثير من المسلمين المؤدين لها ضريبة من الضرائب ، يُحتال عليها .. ، ويتثاقل من دفعها ..

وشهر رمضان الذي كان مدرسةً للتقوى والصبر ، ومعراجاً للروح والفكر .. أصبح شهر طعام وشراب ، وتلذذ وسمر ..

ومناسكُ الحج التربوية الجامعة .. أصبحت عند معظم الحجاج أعمالاً لا

صورية تفتقد وظيفتها في النفوس ، وتتجرد عن معانيها .. فترى الحاجَ متَقَيداً بمحظورات الإحرام وهو متلبسٌ بمحظورات الإسلام ..

والحجاب الذي كان مظهرَ العفّة والحياء ، ورمزَ الصيانة والنقاء ، أصبح عند كثير من المسلمات عبئاً ثقيلاً يُتفَنَّن في إزاحته وتشويه حقيقته .... !!

وقل مثل هذا في كل شعيرة من الشعائر التعبدية ، وفي كل عمل دعا إليه الإسلام ، ولا يزال في المسلمين من يتمسك به أو يدعو إليه ...

ومن هنا : حرص الشارع على المحافظة على معنى العبادة وحقيقتها ، ورسم لها منهجاً يُبْعدها عن هذا التحول ، فأبىٰ الغُلوَّ فيها الذي يُضيعُ جمالها ويحولُها عند صاحبه إلى عادة ...

وهذا يُفَسّر لنا تشدُّدَه ﷺ من الرهط الثلاثة الذين أخطأوا فهمها ..

فقد روى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رَهْطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أُخبروا ، كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من رسول الله ﷺ ، وقد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ! فقال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم ، وأصلي ، وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .[١]

وتفضيلَه لصلاةِ وصيام داود عليه السلام على صوم الدهر وصلاة الليل .. فقد روى الشيخان أيضاً : في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه في رواية : أنه قال : « أحَبُّ الصيام إلى الله تعالى صيامُ داود ، وأَحَبُّ الصلاةِ إلى الله

---

(١) البخاري ٩ : ٩٠ ، ومسلم : ٩ : ١٧٥ .

تعالى صلاةُ داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقومُ ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفرُّ إذا لاقى » . (١)

وأما الجانب الثالث : وهو جانب الإعراض عن العبادة وعدم الاهتمام بها :

فلاشك أن الإعراض عن العبادة وعدمَ الاهتمام بها ، نتيجةٌ طَبَعِيّةٌ لتحول العبادة لدى المسلمين عن مفهومها الصحيح وانقلابها إلى عادات ...

لأن الإنسان مجبول على الحرص على ما ينفعه ، وعلى الاهتمام بما يشعر بفائدته ، وإلا فما الذي يدفع المرء إلى قيامه بالصلاة في غمرات الحياة ومشاغلها ، وهو لا يجد لها طعماً ، ولا يرى لها أثراً ؟ .

وما الذي يدفعه إلى الصيام في شدة الحر ، وهو لا يحس منه إلا بالحرمان ، ولا يراه إلا تحدياً للغرائز والشهوات ... ؟

وما الذي يدفعه إلى العبادة بمعناها الكامل ، وهو يرى أحكام الله وشرعه قيوداً وأغلالاً !! ؟

ومن هنا : أصبحت محافظةُ كثير من الكبار على عباداتهم محافظتَهم على عادات نشأوا عليها ، وتقاليد ورثوها ، ومن ثَمّ : أعرض الشباب عنها ، وزهدوا فيها ...

وأنّىٰ لكبيرٍ هذا شأنه في عبادته ، أن يهتم بتنشئة الأجيال عليها ، وتربيتهم على الأخذ بها ، والحرص على أدائها ..

وأنّىٰ لشبابٍ زَهِدَ فيها ، وأعرض عنها ، أن يُقبل عليها ، ويتحرك بها ، ويتوارثها ، وهو يراها عقبة من العقبات ، وقيداً من القيود ..

---

(١) فتح الباري: ٣ : ١٦ ، ومسلم ٢ : ٨١٦ ، رقم ١٨٩ ط فؤاد عبد الباقي .

فمن أثر الخطأ والتحول في مفهوم العبادة ، أعرضَ الناس عنها ،وحصروها في الشعائر والطقوس ...

ومن أثر افتقاد وظيفة العبادة وانقلابها إلى عادات ، تشوهت صورة الشعائر التعبدية ، وزهد كثير من المسلمين فيها ...

ومن غفلة المسلمين عن هذه الأسباب ، أصبحت العبادة في وادٍ ، والمسلمون في وادٍ آخر وهم لا يشعرون ..

(ب) سبيل علاج هذا الواقع :

إذا كان من الحكمة عندما نتحدث عن واقع سيء في حياة المسلمين ، أن نعرّج على سُبل معالجة ذلك الواقع ، ولا نكونَ من الذين يشخصون الداء ، ولا يصفون الدواء .

فإن من الضروري أن نذكر دائماً في هذا المقام أن السنة الكونية الثابتة التي بينها الله بقوله : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[1] . التي بينت لنا الداء ، وكشفت عن كثير من أسبابه ومسبباته .. هي نفسها مع مثيلاتها من آيات الله توضح لنا الدواء ، وتصف أساليب العلاج ...

فإذا كان تحول واقع المسلمين من حسن إلى سيء ، إنما هو تبعٌ لتغير مفاهيمهم ، وما في نفوسهم ، وتقصيرهم في أداء وظيفتهم .

فإن تحول هذا الواقع من سيء إلى حسن ، ومن شر إلى خير أيضاً ، إنما هو رهنٌ بتغيير المسلمين لما في نفوسهم ، ومعالجتهم لذلك الواقع ..

فإذا حققوا هذا الشرط ، وغيروا هذا الواقع الذي صاروا إليه ، فأصلحوا مفاهيمهم ، وأحسنوا القيام بوظيفتهم ، غير الله ما بهم .

---

(١) ١١ الرعد .

كل هذا يؤكده منطوق هذه الآية الذي يشمل التغيير طرداً وعكساً ..

إلا أن هذا التغيير المطلوب ليس بالأمر السهل الهيّن ، وإنما يحتاج إلى جهود عظيمة متواصلة : جهودٍ خاصة يبذلها الدعاةً والمربوّن ، وجهود عامة يقوم بها كل مسلم لإنقاذ نفسه وصلاح حاله ..

فعلى الدعاة والمربين : أن يوضحوا للناس الحكمة من مشروعية هذه العبادات ، ويكشفوا لهم عن حقيقتها وضرورتها وكيفية الاستفادة منها ...

وأن يضعوا الناس على حقيقة واقعهم السيء الذي هم في غفلة عنه ، ويلمسوهم أثره وخطره على أنفسهم وأجيالهم الحاضرة واللاحقة ...

وذلك بالبيان النظري الكامل لهذه الحقائق ، وعرضها على مختلف الوسائل ، وبشتى الأساليب .

وبالممارسة العملية الصالحة لمعنى العبادة وحقيقتها في نفوسهم ، وفي نفوس من يلوذ بهم ، ليكونوا قدوة عملية للناس ...

ومن ثمّ : يتمثل الناس هذه القدوة التي تصل ماضيهم بحاضرهم ، ويتفهمون تلك الحقائق الخفية عنهم ... ويخطون خطواتٍ صحيحةً في طريق علاج هذا الواقع .

وعندئذ تنشأ عليها الأجيال الحاضرة ، وتُوَرَّث للأجيال القادمة على وجهها الصحيح ...

وبهذا الأسلوب النظري والعملي تتوفر كثير من الجهود ، وتُجْنى أطيب الثمار ، ونتخلص من الحيرة التي أوقعت كثيراً من الدعاة في اليأس من الإصلاح ، وألزمتهم الاستسلام لهذا الواقع المرير .

وعندئذ نستعيد رضا الله عز وجل ، ونستحق وصف العبودية الحقة بممارستها ، والدعوة إليها ، ويصدق فينا وعد الله عز وجل :

فَخَلَف من بعدهم خلْفٌ . أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهواتِ فسوف يلقون غياً .إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً . فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظْلَمُونَ شيئاً » . [1]

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلَنا ، وإن الله لَمَع المحسنين [2] ✩

---

(١) ٥٩ ــ ٦٠ مريم .

(٢) ٦٩ العنكبوت .

(✩) وانظر مقالة لي في مجلة البحوث الإسلامية المجلد الأول ـ العدد الثاني ـ حول هذا الموضوع .

٤ ـ المُلْحَق :

ويشتمل على دراسة تطبيقية لعبادة الصلاة ، على ضوء الدراسة السابقة لبحث العبادة .

منهج الدراسة التطبيقية

تتناول الدراسة التطبيقية كل عبادة من العبادات من حيثياتٍ متعددة ، لتشمل جميع جوانب البحث السابق وعناصره ..

ويمكن إجمال هذه الحيثيات فيمايلي :

١ ـ تدرسُ من حيثُ كونُها عبادة .

٢ ـ تدرس من حيث تاريخُ مشروعيتها .

٣ ـ تدرس من حيث توفر عناصر العبادة فيها .

٤ ـ تدرس من حيث ضرورتُها وحاجة الناس إليها .

٥ ـ تدرس من حيث إرجاعُها إلى أقسام العبادات المتعددة .

٦ ـ تدرس من حيث حكمُ تاركها .

٧ ـ تدرس من حيث توفرُ خصائص العبادة فيها .

٨ ـ تدرس من حيث وظيفتها .

٩ ـ تدرس من حيث واقعُها في حياة الناس .

١٠ ـ تدرس من حيث إمكان معالجة هذا الواقع .

هذه هي الحيثيات العشر الأساسية للدراسة التطبيقية ، أما العبادات من حيث أحكامُها تفصيلا : فمحلها في الدراسات الفقهية ، وكتب الفقه .

ونظراً لكثرة ماكتب حول بعض العبادات بشكل عام ، سأكتفي في دراستي لها بدراسة منهجية مجملة ، مع الإشارة لأهم الكتب وأنفعها في ذلك .

وسأقتصر هنا على دراسة « الصلاة » لأنها أم العبادات ، وسألحقها مستقبلا إن شاء الله تعالى بدراسات مستقلة ، لأمهات العبادات الفردية والاجتماعية .

☆ ☆ ☆

الصَّـلاَة

١ ـ الصلاة من حيث كونُها عبادةً مأموراً بها :

لما كانت الصلاة أُمَّ العبادات وعمودَ الإسلام ، جاء الأمر بها في الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية بأساليب متنوعة :

من ذلك : أسلوب الأمر الصريح بإقامتها وأدائها : وذلك في عشرات من النصوص الشرعية :

قال تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** ﴾ (١).

قال تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ . (٢)

قال تعالى : ﴿ **وأقيموا وجوهَكم عند كل مسجد وادعوه مُخْلِصين له الدين** ﴾ (٣)

ومن ذلك : أسلوب طلب أمر الأهل بها :

قال تعالى : ﴿ **وَامُر أهلَك بالصلاة واصطَبِر عليها .** ﴾ (٤)

ومن ذلك : أسلوب طلبها من الأنبياء والصالحين :

قال تعالى : ﴿ **وأوْصاني بالصلاة والزكاة مادمتُ حياً** ﴾ . (٥)

قال تعالى : ﴿ **يابني أقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر** ﴾ . (٦)

---

(١) ٤٣ البقرة .

(٢) ٨٣ و ١١٠ البقرة ، ٧٧ النساء .

(٣) ٢٩ الأعراف .

(٤) ١٣٢ طه .

(٥) ٣١ مريم .

(٦) ١٧ لقمان .

ومن ذلك أسلوب بيان حرص الأنبياء والصالحين عليها :

قال تعالى : ﴿ ربنا إني أسْكَنْتُ من ذُرِّيتي بوادٍ غيرِ ذي زرع ، عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعلْ أفئدةً من الناس تَهْوي إليهم ... ﴾ [١].

ومن ذلك أسلوب مدح المقيمين لها في عشرات من الآيات منها :

قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وأقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون ﴾ . [٢]

قال تعالى : ﴿ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ... ﴾ [٣]، وغيرها كثير [٤] .

ومن ذلك أسلوب ذم المتساهلين فيها والمضيعين لها :

قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا ﴾ . [٥]

قال تعالى : ﴿ ماسَلَكَكُم في سَقَر ؟ قالوا : لم نَكُ من المصلّين ﴾ [٦].

كما جاءت الأحاديث النبوية آمرة بها ، ومرغبة فيها ، ومسهبةً في بيان فضلها بأساليب متعددة :

من ذلك : تأكيد فرضيتها :

---

(١) ٣٧ إبراهيم .
(٢) ٢٧٧ البقرة .
(٣) ١٦٢ النساء
(٤) ١٧٠ الأعراف ، ٤١ الحج ، ٣ البقرة .
(٥) ٥٩ مريم .
(٦) ٤٢ ـ ٤٣ المدثر .

فعن أنس رضي الله عنه قال : سأل رجل النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله : كم فرض الله على عباده من الصلوات ؟ قال : افترض الله على عباده صلوات خمساً ، فحلف الرجل لا يزيد عليها شيئاً ، ولا ينقص منها شيئاً ، قال رسول الله ﷺ : « إن صَدَق ليدخُلَنّ الجنة » [١] .

وعن أنس أيضًا « فُرِضَتْ على النبي ﷺ ليلةَ أُسريَ به الصلواتُ خمسين ، ثم نقصت حتى جعلت خمساً ، ثم نودي يا محمد : إنه لا يُبدل القول لديَّ .وإن لك بهذه الخمس خمسين » [٢] .

ومن ذلك : بيان أهميتها وفضلها :

« بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ... » [٣] الحديث .

وحديث جبريل : « يامحمد أخبرني عن الإسلام : فقال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وتقيمَ الصلاة وتؤتي الزكاة .. » [٤] .

وحديث « واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة » [٥] .

وحديث « وعموده الصلاة » [٦]

ومن ذلك : ماجاء في أمر الأولاد بها :

« مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ...» [٧] .

---

(١) رواه النسائي وغيره ، جمع الفوائد ١ : ١٣٨ .

(٢) رواه أحمد والنسائي والترمذي وصححه، انظر سنن الترمذي : ١ : ١٣٧ .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه مالك وأحمد وغيرهما ، جمع الفوائد ، ١ : ١٣٥ .

(٦) رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح، انظر سنن الترمذى : ٤ : ١٢٤ .

(٧) رواه أبو داود، انظر سنن أبي دلود ، رقم ٤٩٥ طـ محمد محي

إلى غير ذلك من أساليب تؤكد طلبها ، وأهميتها بما لم يتوفر ذلك لغيرها من العبادات .

ومن هنا جاء في الحديث :

« إن أول ما يُنْظَرُ فيه من عَمَل المرء الصلاة ، فإن قُبلت منه نُظِرَ فيما بقي من عمله ، وإن لم تُقبل لم ينظر في شيء من عمله .. » [١]

☆ ☆ ☆

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ بلاغًا ، انظر الموطأ ١ : ١٧٣ ، وتنوير الحوالك ١ : ١٨٧ .

٢ ـ الصلاة من حيث تاريخ مشروعيتها :

فقد اتفق العلماء على أن فرضية الصلوات الخمس كانت ليلة الإسراء ، وإن اختلفوا في تحديد ليلة الإسراء على أقوال ، فقد روى الإمام البيهقي بسنده عن الزهري أنه قال : أُسرِيَ برسول الله ﷺ قبل خروجه إلى المدينة بسنة .

وروى الحاكم بسنده عن إسماعيل السُدّي أنه قال : فُرِضَ على رسول الله ﷺ الخمسُ ببيت المقدس ليلة أُسرِيَ به ، قبل مهاجره بستة عشر شهراً[١] .

وروى الشيخان والترمذي والنسائي في حديث الإسراء المطول ، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

« ... ثم فُرضت عليَّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم ، فرجعتُ فمررتُ على موسى فقال : بم أُمرتَ ؟ قلت : أُمرتُ بخمسين صلاة كل يوم ، قال : إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإني والله لقد جربت الناس قبلك ، وعالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فرجعتُ ، فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعتُ ، فوضع عني عشراً ، فرجعتُ إلى موسى فقال مثله ، فرجعتُ ، فأُمرتُ بخمس صلوات كل يوم ، فرجعتُ إلى موسى ، فقال : بِمَ أمرت ؟ فقلتُ : أمرتُ بخمس صلوات كل يوم قال : إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، وإني قد جربتُ الناس قبلك ، وعالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ،قال : سألت ربي حتى استحييتُ ، ولكن أرضى وأُسَلِّم ، فلما جاوزتُ نادى منادٍ : أمضيتُ فريضتي ، وخففتُ عن عبادي . »[٢]

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير ، ٢ : ٩٣ ط عيسى البابي الحلبي .

(٢) جمع الفوائد ٢ : ١٨٦ ط الخيرية بالهند . وانظر صحيح البخاري ج ٤ باب ٤٢ ط المكتبة الإسلامية باستانبول .

يقول الإمام ابن كثير في سيرته :

« ولما أصبح رسول الله ﷺ من صبيحة ليلة الإسراء ، جاءه جبرائيل عند الزوال ، فبين له كيفية الصلاة وأوقاتها .

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه فاجتمعوا ، وصلى به جبرائيل في ذلك اليوم إلى الغد ، والمسلمون يأتمون بالنبي ﷺ ، وهو يقتدي بجبرائيل ، كما جاء في الحديث عن ابن عباس وجابر رضي الله عنهم :

« أمّني جبرائيل عند البيت مرتين » فبين له الوقتين الأول والآخر ، فهما وما بينهما الوقت الموسع ، ولم يذكر توسعة في وقت المغرب ، وقد ثبت ذلك في حديث أبي موسى وبُريدة ، وعبد الله بن عمرو ، وكلها في صحيح مسلم »[1] اهـ .

كما كانت صلاة المسلمين في أيامها الأولى إلى بيت المقدس ، حتى حولهم الله عز وجل إلى الاتجاه إلى الكعبة بعد الهجرة بفترة .

فقد روى الشيخان وغيرهما عن البراء رضي الله عنه أنه قال :

« إن النبي ﷺ كان أول ماقدم المدينة نزل على أجداده ، أو قال : أخواله من الأنصار ، وأنه صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قِبْلَتُه قِبَلَ البيت .

وأنه صلى أول صلاة صلاها ـ أي إلى الكعبة ـ صلاةَ العصر ، وصلى معه قومٌ ، فخرج رجل ممن صلى معه ،فمرَّ على أهل مسجد وهم راكعون ، فقال : أشهدُ بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَلَ الكعبة ، فداروا كما هم قِبلَ البيت ، وكانت اليهود قد أعجبهم إذا كان يصلي قبل بيت المقدس وأهل الكتاب ، فلما ولى وجهه ، قبل البيت ، أنكروا ذلك » .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير : ٢ :١١٢ ط عيسى البابي الحلبي .

وفي رواية : إنه مات على القبلة قبل أن تحول رجالٌ وقتلوا ، فلم ندر ما نقول فيهم ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان الله لِيُضِيْعَ إيمانكم ﴾ [١] أي صلاتكم .

وفي رواية أخرى : وكان ﷺ يُحب أن يُوَجَّه إلى الكعبة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قد نرى تَقَلُّبَ وجهك في السماء ﴾. الآية ، فتوجه نحو الكعبة ، فقال السفهاء ــ وهم اليهود : ﴿ ما وَلاهم عن قِبْلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ [٢] .

وفي هذا نزل قول الله عز وجل :

﴿ سيقول السفهاء من الناس : ما وَلاَّهم عن قِبْلَتِهم التي كانوا عليها ، قل : لله المشرق والمغرب ، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ، وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يَتَّبع الرسولَ ممن ينقلبُ على عقبيه ، وإن كانت لكبيرةً إلا على الذين هَدَى الله ، وماكان الله لِيُضِيْعَ إيمانَكم ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم . قد نَرى تَقَلُّبَ وجهك في السماء ، فلنولينك قبلةً ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون ... ﴾ الآيات [٣] .

---

(١) ١٤٣ البقرة .

(٢) انظر جمع الفوائد ٢ : ٧٧ ط الخيرية بالهند ، وانظر أيضاً كلا من تفسير ابن كثير : ١ : ١٨٩ والدر المنثور : ١ : ١٤١ ، ومحاسن التأويل : ٢ : ٢٧٩ .

(٣) الآيات : ١٤٢ ـ ١٤٤ البقرة .

٣ ـ الصلاة من حيث توفرُ عناصر العبادة فيها :

قد مر معنا في بحثنا لطبيعة العبادة في الإسلام ، أنها تتكون من ثلاثة عناصر أساسية ، وهي :

الرقيُّ الروحي ، والتأمل والتفكير ، والخضوع الجسدي ، وحيث كانت الصلاة أمُّ العبادات وعمودَ الإسلام ، فإننا نرى العناصر الثلاثة تتجلى فيها جميعاً في أوضح صورة وأكملها ...

فهي رقيٌّ روحي : بما فيها من شعور بالصلة الوثيقة بالله ، حيث يقف المصلي بين يديه طاهراً من الأحداث والأنجاس ، متوجهاً إلى بيت الله الحرام ، يناجيه ويحمده ويشكره ، ويثني عليه ويستعين به ويتوكل عليه ...

وليس هناك رقيٌّ روحي أبلغ من هذا الرقي ...

فإذا كان روّاد الفضاء يشعرون بالثقة والطمأنينة ماداموا متصلين بمركز توجيههم في الأرض ، ويقعون في القلق والاضطراب إذا ما انقطع عنهم هذا الاتصال لحظة من اللحظات ـ كما هو معروف من واقعهم ـ .

فكيف بالعبد الضعيف القاصر ، وهو يستشعر صلتهُ بخالقه العَليّ العظيم ، يخاطبه ويناجيه ، !!!

وقد جاء في الحديث الشريف : « عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : قال الله عز وجل : قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ماسأل ، فإذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حَمِدَني عبدي ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله : أثنىٰ عليَّ عبدي ، وإذا قالَ : مالك يوم الدين ، قال : مجّدني عبدي ، وإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل »[1] .

---

(١) رواه مسلم والترمذي والنسائي ومالك في الموطأ ، انظر جمع الفوائد ١ : ١٩٧ .

وجاء في الحديث « إن المصلي يناجي ربه فلينظر بما يناجي .. »[١].

فليس كالصلاة صلة قوية متجددة آناء الليل وأطراف النهار ، وبإمكان العبد أن يكثر منها ، ويستزيد ماشاء ، ومتى شاء ..

ومن هنا : اندفع كثير من السلف والخلف إلى الإكثار منها ، والمبالغة فيها ، حتى وصلوا إلى حد عجيب يقطع المرأ في صلاته عن كل شيء ، حتى عن شعوره بنفسه ..[٢]

والصلاة تأمل وتفكير :

بما فيها من تكبير وقراءة ، وتسبيح وتشهد ، وصلاةٍ على الرسول ﷺ ، وبما فيها من أعمال وحركات موحية بالخضوع والتذلل كالوقوف والركوع والسجود .

ولو تفكّر المصلي في وقوفه بين يدي الله ، وفي دعاء الاستفتاح ومعانيه ، وفي قراءة الفاتحة والقرآن ، وأمعن النظر في تسبيحاته وتشهده ، لكفاه ذلك زاداً فكرياً في حياته كلها ، ولدفعه ذلك التفكر والتأمل إلى خشوع القلب وخضوع الجوارح .

فقد كان السلف يفكرون في كل كلمة يقرأونها في صلاتهم سواء أكانت دعاءً أو قرآناً أو تسبيحاً أو تكبيراً ، وكانوا يربطون بين هذه المعاني وبين سلوكهم وواقعهم .... وقد سبق معنا في الحديث : « إن المصلي يناجي ربه ، فلينظر بما يناجي »[٣].

ومن جميل مانقل في هذا ، ماذكره الاستاذ الندوي عن شيخٍ مِمّن صحب الإمام أحمد بن عرفان الشهيد المتوفى / ١٢٤٦ / هـ ، أنه قصد مرةً طبيباً مسلماً

---

(١) رواه مالك في الموطأ ، وأحمد بإسناد صحيح ، كذا في النيل ٢:٦٤، انظر الموارد ١ : ٢٠٥ .

(٢) انظر نقولا عنهم في ذلك في كتاب « مدارج السالكين » ٣ : ١٢٥ ـ ١٢٧ ، وفي كتاب « إقامة الحجة » للكنوي .

(٣) رواه مالك في الموطأ ، وأحمد بإسناد صحيح ، أعذب الموارد ١ : ٢٠٥

في بلده ، وكان الشيخ قد علت سنه وأنهكه المرض ، وكان المحل بعيداً ، فما وصل إلى الطبيب إلا وقد بلغه الجَهد ، وأعياه المشي على الأقدام ، وبقي ينتظر خروج الطبيب برهةً طويلة ، فلما خرج الطبيب بعد انتظار شاقٍ ، أقبل على عبادة مبتدعة ، فيها تعظيم لغير الله ، فما كاد يقعُ نظر الشيخ عليه ، إلا أمر تلميذه بالانصراف ، وخرج من ساعته ، فلما كان في الطريق قال له : ما رأيتُ كاليوم !! أجهدت نفسك في الوصول إلى الطبيب وأطلتَ الانتظار ، فلما خرج بادرتَ إلى الانصراف ولم تَقْضِ حاجتك منه ؟ !

فقال له : ويحكَ ألم تره يعصي الله ويُشركُ به ؟ فقال : مالنا ولعمله ؟ عليه ضلالتُه وسخافتُه ، ولنا صناعته وبراعته ، فقال : عجباً لأمرك ! إذا سكتُّ على ذلك واستعنتُ به ، فكيف أقوم في الليل أمام ربي ؟ وبأي لسان أقول في قنوت الوتر : « ونخلع ونتركُ من يَفْجُرُك » ؟ [١]

ومن هنا : أكد الشارع على ضرورة التعقل والتفكير في العبادة ، وعلى أهمية الخشوع فيها ، فروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : « ليس لك من صلاتك إلا ماعقلتَ منها » [٢]. وجاء في المسند مرفوعاً « إن العبد ليصلي الصلاة ولم يكتب له إلا نصفُها أو ثلثها أو ربعها حتى بلغ عشرها » ، [٣]

وروى الترمذي وغيره مرفوعاً : « إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل » [٤]..

ولولا التفكر والتعقل في الصلاة ، لما أدت الصلاة في المصلي وظيفتها الاجتماعية ، فأمرته بالمعروف ونهته عن المنكر ، وربطت بين خضوعه لله في الصلاة ، والخضوع له سبحانه خارجها ...

ومن هنا تظهر حكمة تكرار قراءة أم الكتاب في كل ركعة من ركعات الصلاة ، لتكون وما يُقرأ معها من قرآن محلا أساسياً للتدبر والتفكر .

وقل مثل هذا : في كل تسبيح وتكبير ، وتشهد ودعاء ...

---

(١) الأركان الأربعة ، ص ٤٨ .

(٢) ، (٣) ، (٤) انظر مدارج السالكين ١ : ٥٦٣ ـ ٥٦٥ وانظر الفتح الرباني : ٤ : ١٣٨ - ١٣٩ .

والصلاة خضوع جسدي :

يخضع العبد فيها لله خضوعاً إرادياً كاملاً .. فيتجرد عن أعماله وأشغاله ليقف بين يدي الله ، ثم يقف وقوفاً خاصاً وبكيفية خاصة مشعرة بالذلة والخضوع ... ويتنقل بين حركات وأعمال كلها تؤكد هذا الخضوع وتزيده ..

وقد أشار الأستاذ الندوي إلى تدرج المصلي بالخضوع إشارة لطيفة فقال : « ويتدرج المصلي في الخضوع والانحناء ، فيفتتح الصلاة بالقيام ، فيثني بالركوع ، ويثلث بالسجود ، وهو شأن الخاضع الطبيعي ، ولا يخِرُّ ساجداً من ركوع ، بل يقف وقفة قصيرة خفيفة ، ثم ينحني للسجود ليكون أبلغ في الخشوع وأوقع في النفس ، وأدل على الذل ... » [١] .

ولا ننسى أن خضوع المصلي لمولاه ، إنما هو خضوع حب يشعر فيه باللذة والراحة والسعادة ، ويزرع في نفسه الثقة والطمأنينة ، « فإن أقرب مايكون العبد من ربه تعالى وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » . [٢] ويصعب على المرء القيام بجزء منه لأحد سوى الله .

ومن هنا : كانت العناصر الثلاثة المكونة لطبيعة العبادة في الإسلام ، متمثلة في الصلاة بتكامل وتوازن وجمال .. وإن أي تجريد للصلاة عن عنصر من هذه العناصر يخرجها عن حقيقتها ، ويفقدها آثارها ووظيفتها .. [٣]

---

(١) الأركان الأربعة ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٢) لمسلم وأبي داود والنسائي ، جمع الفوائد ١ : ٦١٧ . .

(٣) انظر كلاماً جميلا في هذا للأستاذ الندوي في الأركان الأربعة ، ص ٣٠ ـ ٣١ ، وفي كتاب « العقيدة والسلوك » ص ١٠٠ ـ ١٠٣ .

٤ ـ الصلاةُ من حيث ضرورتُها وحاجة الإنسان إليها :

الصلاة ـ كما رأينا في الفقرة السابقة ، وبما تحتويه من عناصر ـ تسدُّ حاجةً أساسية من حاجات الإنسان ومتطلباته ، وتلبي ضرورةً من ضروراته .. لأنه المخلوق المكلف ، الضعيف القاصر ، المركب من روح وجسد.. ومن كان هذا طبعه ، وهذه حاله ، فلابد له من اتصال دائم منظم بخالقه القوي العزيز ، العليم الرحيم .. ومن غذاءٍ يحققُ له حاجة الروح والجسد على السواء .

ومن هنا كانت الصلاة خيرَ وظيفة له ، وأهم وسيلة تحقق هذه الحاجة : فهي قرة عيون المؤمنين ، ومعراج روح المتقين ، وملجأ الخائفين..

فهذا رسول الله ﷺ يقول : « وجُعِلَ قرةُ عيني في الصلاة » [١] . « وكان إذا حزبه أمرٌ صلى » . [٢]

وروى الستة في الكسوف عن عائشة رضي الله عنها قالت : كُسِفَت الشمسُ على عهدِ رسول الله ﷺ فقام فصلى بالناس فأطال القراءة ، ثم ركع فأطال الركوع ، ثم رفع رأسه فأطال القراءة وهي دون القراءة الأولى ، ثم ركع فأطال الركوع وهو دون ركوعه الأول ، ثم رفع رأسه ثم سجد سجدتين ، ثم قام فصنع في الركعة الثانية مثل ذلك ، ثم سلم وقد تجلَّت الشمس ، ثم قام فخطب فقال :

« إن الشمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكنهما آيتان من آيات الله تعالى يُريهما عباده ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة » [٣] .

---

(١) رواه النسائي وغيره ، قال العراقي : إسناده جيد ، انظر أعذب الموارد ١ : ١٣٥ .

(٢) رواه أبو داود وسكت عليه، ورواه أحمد أيضاً، انظر فيض القدير ٥ : ١٢٠ .

(٣) جمع الفوائد ١ : ٢٨٦ .

وعن النَّضِرِ قال : كانت ظلمةٌ على عهد أنس رضي الله عنه فأتيتُه فقلتُ : يا أبا حمزة هل كان هذا يصيبكم على عهد رسول الله ﷺ ؟

فقال : معاذ الله ، إن كانت الريحُ لتَشْتَدُّ ، فنبادر المسجد مخافة أن تكون القيامة » . (١)

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا كانت ليلةٌ ريح شديدة ، كان مفزعُه إلى المسجد حتى تسكن الريح ، وإذا حدث في السماء حدثٌ من خسوف شمس أو قمر ، كان مفزعة إلى الصلاة حتى تنجلي » . (٢)

ولعل أجمل تمثيل للصلاة يشعر بأهميتها وحاجة الإنسان إليها ، تشبيهه ﷺ لها بالميزان .

فقد روى ابن المبارك في الزهد ، من حديث الحسن مرسلاً : « مَثَلُ الصلاة المكتوبة كمثل الميزان ، فمن أوفى استوفى » . (٣)

ولعل في دراستنا للصلاة من حيث وظيفتِها زيادةَ بيان لأهميتها وحاجة الإنسان إليها ..

☆ ☆ ☆

---

(١) رواه أبو داود ، انظر سنن أبي داود رقم ١١٩٦ ط١ محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٢) رواه الطبراني في الكبير .

(٣) انظر تخريج العراقي على الإحياء ٢ : ٢٦٤

٥ ـ الصلاة من حيث إرجاعُها إلى أقسام العبادة :

الصلاة إذا نظرنا إليها من جهة تقسيم العبادة من حيث تعلقها : فهي عبادة بدنية شاملة لعبادة القلب والفكر والجسد . وذلك بما تحتويه من نيةٍ وقراءة ، وقيام وركوع وسجود ، وما إلى ذلك من أعمال .

وإذا نظرنا إليها من جهة تقسيم العبادة من حيث وضعُها : فهي عبادة أساسية وشعيرة من أكبر الشعائر التعبدية ،وركن من أركان الإسلام .. وقد مر معنا وصفه ﷺ لها بعمود الإسلام ...

وإذا نظرنا إليها من جهة تقسيم العبادة من حيث طبيعتها : فهي عبادة معللة في أصل مشروعيتها ، ومشتملة على أفعال غير معللة أيضاً ، وذلك لتكون أبلغ في الخضوع وفي تحقيق معنى العبودية .

أما عن تعليل أصل مشروعيتها :

فمن ذلك قول الله عز وجل : « وأقم الصلاةَ لذِكْري » . [١]

وقوله : ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تَنْهَى عن الفحشاء والمنكر » [٢]

وأما عن أفعالها غير المعللة :

فكعدد الركوع والسجود في الصلاة الواحدة ، وعدد الركعات في الصلوات المتنوعة ، وبعض كيفيات القيام والقعود والتشهد والتسليم .. وهكذا .....

وإذا نظرنا إليها من جهة تقسيم العبادة من حيث حكمها :

---

(١) ١٤ طه .

(٢) ٤٥ العنكبوت .

فهي تشتمل على عدة أقسام :

فهي عبادة مفروضة واجبة كالصلوات الخمس ، وهي عبادة مندوبة مرغوبة كالسنن الرواتب وغيرها من النفل المطلق ، وهي تتناولها أحكام التحريم والكراهة حسب مايعرضٌ عليها من أحوال ، أو يطرأ عليها من أمور ..

وإذا نظرنا إليها من جهة تقسيم العبادة من حيث آثارها :

فهي : عبادة فردية شخصية لا تخلو من أثر اجتماعي هام : كما سيأتي معنا في دراستنا لها من حيث وظيفتَها .

☆ ☆ ☆

٦ ـ الصلاة من حيث حكم تاركها :

لما كانت الصلاة أم العبادات وعمود الإسلام ، كان حكم تركها أغلظ وأشد من حكم تارك غيرها من الأعمال ، وللعلماء في حكم تاركها تفصيل نجمله فيما يلي :

(أ) إن من تركها جاحداً لوجوبها غير معترف بفرضيتها : اعتبر كافراً مرتداً بإجماع المسلمين ، إذا كان ممن نشأ بين المسلمين وعرف حكمها ، وعندئذ يجب على الإمام قتله بالردة إلا أن يُسلم ، وتترتب عليه جميع أحكام المرتدين ، سواء أكان هذا الجاحد للصلاة رجلاً أو امرأة .

أما إذا كان ناشئاً بعيداً عن المسلمين ، أو كان حديث عهد بالإسلام ، فلا يعتبر كافراً بمجرد تركه للصلاة وجحوده لفرضيتها ، وإنما إذا أصر على الجحود بعد الإيضاح والبيان له ، ويعتبر حكمه عندئذ كحكم سابقه ، فيقتل كفراً .[1]

ب ـ أما من ترك الصلاة غير جاحد لفرضيتها فهو قسمان :

١ ـ من تركها لعذر ، كالنوم والنسيان ونحوهما ، فلا إثم عليه ، وعليه القضاء فقط عند جمهور العلماء .

٢ ـ أما من تركها لغير عذر تساهلاً وتكاسلاً ، فيأثم بلاشك ، واختلف العلماء في الحكم عليه إلى ثلاثة أقوال أساسية وهي :

القول الأول :

يكفر بتركها ويقتل كفراً بالردة ، وهو مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبه قال ابن المبارك ، وإسحق بن راهويه ، وهو أصح الروايتين عن الإمام أحمد ، وبه قال منصور الفقيه وأبو الطيب بن سلمه من فقهاء الشافعية .

---

(١) انظر المجموع للنووي ٣ : ١٥ ط دار العلوم للطباعة ، والمغني لابن قدامة ، ٩ : ١١ ط الفجالة الحديثة .

القول الثاني :

لا يكفر بتركها ولا يقتل ، بل يُفَسّقُ ويعزِّر ويحبس حتى يصلي ، وهو قول الإمام أبي حنيفة وأصحابه والثوري وجماعة من أهل الكوفة ، والمزني من الشافعية .

القول الثالث :

لايكفر بتركها ، وإنما يقتل على تركها حداً لا كفراً ، وهو القول المشهور للشافعية وبه قال الإمام مالك (١) .

واحتج أصحاب القول الأول :

بحديث جابر رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن بين الرجلِ وبين الشِرْك والكفر تركُ الصلاة » (٢) .

وبحديث بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « العهدُ الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » . (٣)

وبما روي عن شقيق بن عبد الله العقيلي التابعي أنه قال : « كان أصحاب محمد ﷺ لا يَرَوْن شيئًا من الأعمال تَرْكُه كفرٌ غير الصلاة » (٤) .

كما احتجوا بالقياس على ترك كلمة التوحيد . (٥)

---

(١) انظر المجموع للنووي بتصرف ٣ :١٥ ـ ١٨ ط دار العلوم للطباعة .

(٢) رواه مسلم وهذا لفظه ، وغيره بلفظ « أو الكفر » .

(٣) رواه الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . انظر تحفة الأحوذي ٧ : ٣٦٩ ط الفجالة الجديدة .

(٤) رواه الترمذي فى كتاب الإيمان بإسناد صحيح ، انظر تحفة الأحوذي ٧ : ٣٦٩ ـ ٣٧٠ ط الفجالة الجديدة .

(٥) انظر المجموع ٣ : ١٥ ـ ١٨ بتصرف ط دار العلوم للطباعة . وتحفة الأحوذي ٧ : ٣٧٠ ـ ٣٧٢ ط الفجالة الجديدة .

واحتج أصحاب القول الثاني :

على القول بأن تارك الصلاة لا يكفر ولا يقتل ، بل يعزر ويحبس : بحديث ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحلُّ دمُ امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزان ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[١] .

وبحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خمسٌ صلوات افترضهن الله ، من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن ، وأتم ركوعهن وخشوعهن ، كان له على الله عهد أن يغفر له ، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد ، إن شاء غفر له وإن شاء عذّبه »[٢] .

وبغير ذلك من الأحاديث العامة ، كقوله ﷺ : « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة » .[٣]

كما احتجوا بالقياس على ترك الصيام والزكاة والحج ... وبأنه لم يزل المسلمون يورثون تارك الصلاة ويورثون عنه ، ولو كان كافراً لم يرث ولم يورث .

واحتج أصحاب القول الثالث :

على قولهم بأنه يقتل حداً ولا يكفر . بمثل أدلة أصحاب القول الأول على القتل ، وبمثل أدلة أصحاب القول الثاني على عدم التكفير .

كما استدلوا بقوله تعالى :

---

(١) رواه البخاري ومسلم هكذا بلفظ (الزانِ) وهي لغة في (الزاني) .

(٢) رواه أبو داود وغيره بأسانيد صحيحة ، انظر المجموع ٣ : ١٨ .

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان : انظر شرح مسلم للنووي : ١ : ٢١٨ ط دار الفكر .

﴿ فإذا انْسَلَخ الأشهر الحُرُم ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخُذوهم واحصُروهم واقعدوا لهم كل مَرْصَد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فَخَلُّوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم ﴾ (١) .

ويقوله ﷺ : « أُمِرْت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم » . (٢)

وتأولوا الأحاديث المصرحة بالكفر ، على أنه محمول على مشاركة تارك الصلاة للكافر في بعض أحكامه ، وهو وجوب قتله قال ، الإمام النووي :وهذا التأويل متعين للجمع بين نصوص الشرع وقواعده التي ذكرناها (٣) .

كما أجابوا عن النصوص العامة التي تقتضي عدم قتله ، بأنها عامة مخصوصة بالنصوص الأخرى ، وأن القياس على ترك الصيام والزكاة والحج . قياس في مقابلة النص .

هذه هي مجمل أدلة الأقوال الثلاثة في المسألة .

والذي يظهر لي من تتبع أدلة الأطراف ومحاولة الجمع بينها ، وبين القواعد العامة . رجحان القول الثاني الذي يرى :أن تارك الصلاة من غير جحود لا يكفر ولا يقتل وإنما يعزر ويحبس حتى يصلي .

وكأن العمل جرى عليه في معظم العصور الإسلامية ، فلم يشتهر قتله ـ مع عدم خلو عصر من العصور من تاركي الصلاة ـ كما أن المعمول به توريثه والتوريث منه ، وعدم التفريق بينه وبين زوجه ... إلى غير ذلك من أحكام تترتب على الردة .

---

(١) التوبة : ٥ .

(٢) متفق عليه .

(٣) المجموع ٣ : ١٨ ـ ١٩ ط دار العلوم للطباعة .

وهو الحكم الأليق بترك الأعمال خلافاً للأمور الاعتقادية . ويكفي في زجر تارك الصلاة تعزيره إلى أن يصلي ، وعزله عن المجتمع في السجن ، حتى لا يهوّن على غيره أمر العبادة .

أما النصوص المصرحة بتكفير تارك الصلاة ، فيمكن حملها : على أن تارك الصلاة عَمِلَ عَمَلَ أهل الشرك والكفر تغليظاً لجرمه . كما حمل بعض أهل العلم حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » [١] . فقد رواه الترمذي وحمله على التغليظ ، وقال : « هذا مثل ماروي عن النبي ﷺ أنه قال « الرياء شرك » [٢] .

كما حمله على ذلك الحافظ ابن حجر وغيره . [٣]

كما يمكن حمله على قول طاووس وغيره في قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ [٤] حيث قال : « ليس بكفر ينقل عن الملة ، ولكنه كفر دون كفر ... » [٥] وقد حمله على هذا جمهور العلماء من السلف ، وقالوا المراد : من حكم بغير ما أنزل الله جحوداً واستحلالاً .. » [٦] .

هذا عن النصوص المفيدة للكفر ، أما النصوص الآمرة بالقتل لتارك الصلاة ، فتحمل على إرادة القتال ، لا القتل ، ومن المعلوم أن القتال يكون للكافرين وغيرهم ، فلو ترك قوم شعيرة من شعائر الدين قوتلوا عليها عند كثير من العلماء ، فقتالهم على ترك الصلاة والزكاة أولى وأحق ، وعلى هذا يمكن أن يحمل قتال أبي بكر رضي الله عنه لمانعي الزكاة [٧] .

---

(١) جمع الفوائد : ١ : ٢١٢ ط المطبعة الخيرية بالهند .

(٢) رواه ابن ماجه من حديث معاذ ، انظر تحفة الأحوذي ٧ : ١٣٦ ط الفجالة الجديدة .

(٣) الفتح : ١١ : ٥٣١ ط السلفية ، والمرقاة على المشكاة : ١ : ٣٨٩ ط الهندية .

(٤) المائدة ٤٤ .

(٥) تفسير القرطبي : ٦ :١٩٠ ـ ١٩١ ط دار الكتب .

(٦) تفسير القرطبي ٦ : ١٩٠ ـ ١٩١ ط دار الكتب .

(٧) انظر الاستدلال بهذه النصوص على القتال في جامع العلوم والحكم : ٨٠ .

فقد روي عن سعيد بن جبير أنه قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

« لو أن الناسَ تَركوا الحج لقاتلناهم عليه ، كما نقاتلهم على الصلاة والزكاة »[١] .

ونقل عن الإمام أبي يوسف رحمه الله قوله : « إذا امتنعوا عن إقامة الفرائض نحو صلاة الجمعة وسائر الفرائض وأداء الزكاة يقاتلون ، ولو امتنع واحد ضربته » .

كما نقل عن الإمام محمد بن الحسن رحمه الله قوله : « الأذان وصلاة العيد ونحو ذلك ، وإن كانت من السنن إلا أنها من أعلام الدين ، والإصرار على تركها استخفاف بالدين ، فيقاتلون على ذلك » .

وعن مكحول رحمه الله : « السنة سنتان ، سنُة أخْذُها هُدىً ، وتركها لابأس به ، وسنة أخذها هدى ، وتركها ضلالة ، كالأذان والإقامة وصلاة العيد ، يقاتلون على الضلالة ، إلا أن أحداً إذا ترك ذلك ، يضرب ويحبس لتركه سنة مؤكدة ، ولا يقاتلْ ، لأن فعله لايؤدي إلى الاستخفاف بالدين .... »[٢] .

وهذه الاحتمالات الطارئة على النصوص التي استدل بها الآخرون ، تجعلها لاتقوى على معارضة النصوص العامة التي لاتقبل تأويلا ،فلابد من المصير إلى وجه من أوجه الجمع التي ذكرتْ جمعاً بين الأدلة .

كما يقوى عندئذ قياس تارك الصلاة على تارك الأركان الإسلامية الأخرى ، ويكون أقوى من قياسه على تارك الشهادتين الذي صار إليه الطرف الأول ، وذلك للفرْق الواضح في الحكم بين الركن الاعتقادي والأركان العملية . والله أعلم .

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم : ٨٢ .

(٢) ذكر هذه النقول عن الأئمة العلامة ابن الهمام في فتح القدير ، انظره مع حواشيه: ١ :٢٠٩ :٢١٠ط دار إحياء التراث .

٧ ـ الصلاة من حيث توفرُ خصائص العبادة فيها :

تبرز في عبادة الصلاة الخصائص الخمسةُ الأساسية للعبادة ، التي سبق الكلام عنها في بحثنا عن خصائص العبادة في الإسلام .. وذلك لأنها أم العبادات وعمودُ الإسلام .

فالصلاة عبادة شاملة عامة :

تشمل الكبار والصغار ، والرجال والنساء ، وتعمّ الأحرار والعبيد ، والمسافر والمقيم ، والصحيح والمريض ، والآمن والخائف ...

وهي عبادة مستمرةٌ دائمة :

تبدأ بالإنسان من سن السابعة ، وتستمر به إلى آخر العمر ...

وهي عبادة سهلة ميسرة :

وذلك من حيث عددها ، حيث اقتصر عدد الصلوات المكتوبات على خمس صلوات ، بعد أن فرضت خمسين صلاة ..

ومن حيث توزيعها على ساعات الليل والنهار ، واستغراقُها لدقائق معدودات من اليوم كله .

ومن حيث تيسيرها على المريض قائماً أو قاعداً أو مضجعاً ، وقصرها على المسافر وترخيص الجمع لها في السفر .... إلى غير ذلك من مظاهر اليسر .

وهي عبادة توقيفية في أصل مشروعيتها :

فلا يجوز تشريع صلاة جديدة لم ترد عن الله ورسوله ، ومن هنا حكم العلماء على (صلاة الرغائب) « بأنها بدعة لعدم ثبوتها عن رسول الله ﷺ [1] .

---

(١) حديثها مطعون في سنده ، انظر جمع الفوائد ١ : ٣١١

وهي عبادة متنوعة :

منها المفروض والمندوب ، وتكتنفها الأحكام التكليفية الخمسة ، كما مر معنا في بحثنا لخصيصة التنوع .[١]

وبهذا تظهر لنا الخصائص الخمس في عبادة الصلاة .

☆ ☆ ☆

---

(١) راجع ص ٧٣ - ٧٤ من هذا البحث .

٨ ـ الصلاة من حيث وظيفتُها :

الصلاة عبادة فردية شخصية لا تخلو من أثر اجتماعي عام .

فمن وظيفتها الفردية :

تربيةُ النفس البشرية وتهذيبها عن طريق تمكين صلتها بخالقها ، وزرع المراقبة فيها لله ..

وإلى هذه الوظيفة يشير قول الله عز وجل :

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرةٌ إلا على الغاشعين ... ﴾ [١] .

﴿ استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين ﴾ [٢] .

﴿ إن الإنسان خُلِقَ هلوعاً ، إذا مسّه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين ﴾ [٣] .

ومن وظيفتها الفردية :

تكفير الذنوب والخطايا واستحقاق العبد الجنة :

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مُكَفِّراتٌ لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » [٤] .

---

(١) ٤٥ البقرة .

(٢) ١٥٣ البقرة .

(٣) ٢٠ المعارج .

(٤) رواه مسلم والترمذي . انظر شرح مسلم للنووي : ٣ : ١١٧ ، وسنن الترمذي رقم ٢١٤ .

وروى أحمد وغيره عن حنظلة رضي الله عنه مرفوعاً : « من حافظ على الصلوات الخمس ركوعهن وسجودهن ومواقيتهن ، وعلم أنهن حق من عند الله ، دخل الجنة ، أو قال : وجبت له الجنة ، أو قال : حرم على النار »[١].

إلى غير ذلك من أحاديث كثيرة تؤكد هذا الأثر[٢].

ومن وظيفتها الفردية : تنوير قلب المؤمن وفكرِه :

فقد روى أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاةً ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبيّ بن خلف . « قال المنذري : رواه أحمد بإسناد جيد[٣]

ومن ظيفتها الفردية : حفظُ المصلي من كل مايسوؤه :

فعن أنس رضي الله عنه مرفوعاً :

« من صلى الصلوات لوقتها ،وأسبغ لها وضوءها ، وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها ،خرجت وهي بيضاء مسفرة ،تقول :حفظك الله كما حفظتني ، ومن صلى لغير وقتها ، ولم يسبغ لها وضوءها ،ولم يتم لها خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها ، خرجت وهي سوداء مظلمة ، تقول : ضيعك الله كما ضيعتني ، حتى إذا كانت حيث شاء الله لُفّت كما يُلف الثوب الخَلق ، ثم ضرب بها وجهه »[٤].

---

(١) جمع الفوائد ١ : ١٣٦ .

(٢) انظر جمع الفوائد : ١ : ٩١٢ - ٩١٧ - ٩٢٤ وغيرها

(٣) انظر الترغيب والترهيب : ١ : ٢٨٥ طـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط، وهو ضعيف، انظر أعذب الموارد ١ : ١٣٦ .

ومن وظيفتها الاجتماعية :

تنقية سلوك المصلي من الفحشاء والمنكر بما تزرعه من مراقبة دائمة لله وخشية منه .

قال تعالى : ﴿ وأَقِمِ الصلاةَ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ (١) .. وقال : ﴿ فخَلَفَ من بعدهم خَلْف أضاعوا الصلاة واتَّبَعوا الشهوات ﴾ (٢) ..

والمؤمن الذي يعيش في مراقبة دائمة لله في صلاته ، تنسحب هذه المراقبة على سلوكه وتصرفاته خارج صلاته ، فتحجزه عن كل قبيح ..

ومن وظيفتها الاجتماعية :

تقوية الروابط بين المصلي وبين إخوانه المسلمين ..

ومن هنا جاءت مشروعية الجمعة والجماعة ، وجاء التغليظ والوعيد الشديد في التساهل فيهما ، فقد جاء في الجمعة :

عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لقد هممتُ أن آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أُحرّقْ على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » رواه الإمام مسلم (٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لينتهينَّ أقوام على ودعهم الجمعات ، أو ليختِمَن الله على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين » رواه الإمام مسلم والنسائي (٤) .

---

(١) ٤٥ العنكبوت .

(٢) ٥٩ مريم .

(٣) انظر شرح مسلم للنووي : ٥ : ١٥٥ طـ دار الفكر .

(٤) جمع الفوائد : ١ : ٨٩ ط الخيرية بالهند .

كما جاء في الجماعة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ... ولقد هممتُ أن آمر بالصلاة فتقام ، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس ، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب ، إلى قوم لا يشهدون الصلاة ، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار » رواه الستة (١) .

ولعظم أمر الاجتماع على عبادة الصلاة ، جاء الترغيب في صلاة الجماعة بأساليب عديدة منها : ماروواه ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفَذِّ ، بسبع وعشرين درجة » رواه الستة إلا أبو داود . (٢)

ومارواه أبي بن كعب رضي الله عنه قال :

صلى بنا النبي ﷺ يوماً الصبح ، فلما سلم قال : « أشاهدٌ فلان ؟ قالوا : لا ، قال : أشاهدٌ فلان ؟ قالوا : لا ، قال : « إن هاتين الصلاتين - يعني الصبح والعشاء - أثقل الصلوات على المنافقين ، ولو تعلمون مافيهما لأتيتموهما ولو حبواً على الركب ، وإن الصف الأول على مثل صف الملائكة ، ولو علمتم مافضيلته لابتدرتموه ، فإن صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده ، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل ، وماكثر فهو أحب إلى الله » رواه أبو داود والنسائي (٣) .

---

(١) و (٢) جمع الفوائد : ١ : ٨٩ ط الخيرية بالهند .

(٣) جمع الفوائد : ١ : ٨٨ ط الخيرية بالهند .

٩ ـ الصلاة من حيث واقِعُها :

إذا نظرنا إلى الصلاة من حيث واقعها في حياة المسلمين ، نجدها قد أصيبت بأمرين خطيرين هما :ـ

(أ) الخروج عن طبيعتها .   (ب) التحول عن وظيفتها .

أما الخروج عن طبيعتها :

فقد أصبحت الصلاة في حياة الناس أعمالاً لا شعورية تخلو من الروح والفكر ، وتقتصر على عنصر الخضوع الجسدي . وكأنها جسم بلا روح ولا عقل .. يؤديها كثير من المسلمين ، وهم لا يفهمون لهامعنى ، ولا يجدون لها طعماً .

وأما التحول عن وظيفتها :

فقد أصبحت الصلاة صورة لا حقيقة لها ، وذلك تبعاً للخروج عن طبيعتها ، وأنى لصلاةٍ أصبحت حركات لا شعورية أن تقوم بوظيفتها وتؤدي مهمتها في حياة الناس .! فقد ضعفت وظيفتُها الفردية وانمحت آثارُها الاجتماعية ، فترى المصلي يصلي وهو لا يشعر بحقيقة صلاته وكأنه آلة تتحرك ، تراه متقيداً بأحكام الصلاة ، متفلتاً من أحكام الإسلام خارج الصلاة .. يركع ويسجد لله في صلاته ويركع ويسجد لغيره خارجها . يكبر الله فيها بلسانه ، ويقدّم كل شيء عليه بواقعه وسلوكه ..

وهكذا تشوهت حقيقتها ، واختلفت مواقف الناس منها : فمن محافظٍ عليها محافظة تامة يؤديها على وجهها الصحيح وقليل ماهم .. إلى محافظٍ عليها محافظةَ عادة دون أن تترك فيه أثراً ، وهذه حال أغلب المصلين ..

إلى محافظ عليها أحياناً وتارك لها أحياناً ، تبعاً لبيئته من جهة ، ولقوته وضعفه من جهة أخرى . يراها في كثير من الأحيان عبئاً ثقيلاً .. وهذا ليس بالقليل .. إلى مُعرضٍ عنها كل الإعراض ، ومتصور لها أسوأ تصور ، خارجاً بذلك عن حظيرة الإسلام .

وحدث لي مرةً في مدينة الطائف : أني كنت أقصد رجلاً لإصلاح سيارتي ، فلفت انتباهي أكثر من مرة ، أنه حينما يُنادى بالصلاة ويؤمر الناس بإغلاق حوانيتهم من أجلها ، يُغلقُ هذا المسكين حانوته ، ويركب سيارته ، ويجول فيها جولة ،ثم يعود أثناء انتهائنا من الصلاة ، فصارحته بذلك ، وسألته عن موقفه هذا سؤال الحريص المشفق ، فصارحني وقال :

هل الله بحاجةٍ إلى صلاتنا ؟ قلت : لا ، قال : وهل تفيْده طاعاتنا شيئاً ؟ قلت : لا ، قال : وهل تضره معصيتنا وعدم صلاتنا ؟ قلت : لا ، قال :

أما نحن ، فتضرنا الصلاة ، قلت : كيف ؟ قال : إنني ذو عيال ، وإن عملي في هذه الدقائق يجلب إلي شيئاً من المال يسد حاجتي وحاجة عيالي ، فلماذا أتضرر أنا بشيء لا يستفيد منه الله ؟ ..

فأجبته متعجباً مشفقاً : يا أخي : لقد قدّمت لي مقدمات في أول حديثك ، اتفقت معك عليها ، فلا أدري لم اختلفنا في النتيجة ؟ فهل تسمح لي أن أعيد عليك أسئلتك بشكل آخر ؟ فرحب بذلك ، فقلت :

هل الله بحاجة إلى صلاتنا ؟ قال : لا ، قلت : وهل تفيده صلاتنا وعبادتنا ؟ قال : لا ، قلت : وهل تضره معصيتنا ؟ قال : لا ، قلت : هل أنت مؤمن بما تقول ، أم قلته مسايرة لي ؟ قال : بل هو الحق ، فقلت له : بقي سؤال واحد فاتك أن تسألني عنه قبل الجواب الأخير وهو :

إن كان هذا شأنه سبحانه ، فلماذا أمرنا بالصلاة وشدد عليها ؟ .. فسكت حائراً ، فقلت : لا داعي إلى الحيرة ، هل تتصور أن يأمرنا بها عبثاً ؟ أو لإضاعة أوقاتنا وأموالنا ؟ قال : لا ، قلت : إذن الجواب : إنه ما أمرنا بها إلا لمحض مصلحتنا وحاجتنا إليها ،ظهرت لنا تلك المصلحة أو خفيت ، علما بأن مصلحتنا في الصلاة ظاهرة ، وأسهبت في بيان بعض آثارها الاجتماعية والفردية ... حتى استوقفني وقال : - وأفلح إن صدق -

لو تهيأ لي من يبحث معي موضوع الصلاة كبحثك هذا ، لصليت من عشر سنين ، ولكني كنت أفعل كما رأيت ،ووعدني بالمحافظة على الصلاة .

وهذا الصنف على قلته ،يزداد كثرة يوماً بعد يوم ، ويتغلغل في جميع الجهات والمستويات .. وهكذا ضاعت الصلاة بين المسلمين ضياعاً يهددُ ركناً أساسياً من أركان دينهم ، ويهز عمود إسلامهم .. وهم غافلون مسترسلون في غفلتهم ، أو يائسون قانطون من واقعهم ..

☆ ☆ ☆

١٠ ـ الصلاة من حيث إمكانُ معالجة واقعها :

رأينا في الفقرة السابقة : حال الصلاة وواقعها في حياة المسلمين اليوم ، وكيف وقف الناس منها مواقف مختلفة ...

وإذا كان الصنف الأخير من هذه الأصناف أخطرَ الأصناف على الإطلاق ـ وهو الصنف الذي أعرض عنها وتصورها أسوأ تصور - فإن علاج هذه المواقف جميعها إنما يبدأ من علاج الصنف الثاني الذي تحولت العبادة فيه إلى عادة ، وأصبحت الصلاة عنده حركات لا شعورية لا تغني من شيء ..

لأن موقف هذا الصنف من الصلاة واسترساله فيه ،هو المسبّبُ الأساسي لتلك المواقف الأخرى ، وعنه انبثقت تلك الأصناف ...

وعلاجه يكون بعدة أمور :

١ ـ بتوعية الناس حول العبادة بشكل عام ، وبخاصة حول الصلاة عن طريق تصحيح مفهومها ، وبيان طبيعتها ووظيفتها من جهة ، وممارستها على شكلها الصحيح ، وإعادتها إلى معنى العبادة من جهة أخرى [1] .

٢ ـ والاهتمام بها على مستوى الآباء والمربين ، وتنشئة الأجيال على حقيقتها وحبها ، بالأمر بها للاطفال في سن السابعة ، والابتهاج بوصولهم هذه المرحلة ، وتشجيعهم على المحافظة عليها محافظة تامة في صغرهم .. والتدرج معهم في توضيح حقائقها وفوائدها .

٣ ـ والاهتمام بها على مستوى الدولة في جميع مؤسساتها الإعلامية وغيرها ، واتخاذ المساجد لها في كل دائرة ومؤسسة .. وإيقاف الدوائر والأعمال العامة والخاصة وقت الصلاة ، إظهاراً لأهميتها وتسهيلاً لأدائها ..

---

(١) ومن أجود من عرض الصلاة عرضاً جيداً مفيداً الأستاذ الندوي في كتابه : الأركان الأربعة ، وكتابه « العقيدة والسلوك » انظر ص ١٠٠ ـ ١١٨ .

والأخذ على أيدي المتساهلين بها ،وتطبيق حكم الشرع في تاركها على مسمع الناس وأبصارهم .

وبهذا يُرجى للصلاة أن تعود إلى طبيعتها وتؤدي وظيفتها ، وتحتل مكانتها في نفوس المسلمين ومجتمعاتهم ، فيسلم لهم عمود دينهم ويقوى أثر الإسلام والعبادة في حياتهم .

وإن أي جهد يبذل في هذا السبيل إنما يُساهم في إصلاح المسلمين بوجه عام . لأن الصلاة في الإسلام ، بمنزلة القلب من الجسد ، فبصلاحها يصلح ، وبفسادها يفسد ...

ومن هنا كانت أول ركن عمليّ شرع من أركان الإسلام ، وكانت أول عمل ينظر فيه من عمل المرء ، فإن قُبِلَت منه نظر فيما بقي من عمله ، وإن لم تُقْبل لم يُنْظَر في شيء من عمله ... (١)

﴿ والذين جاهدوا فينا لَنَهدِينَّهم سُبُلَنا ، وإنّ الله لَمع المحسنين ﴾ (٢) ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

---

(١) رواه مالك في الموطأ بلاغاً . انظر الموطأ ١ : ١٧٣ ، وتنوير الحوالك : ١ : ١٨٧ .

(٢) ٦٩ العنكبوت .

الفهارس

١ - الآيات القرآنية

٢ - الأحاديث النبوية

٣ ـ الأعلام

٤ ـ المراجع

١ - القرآن الكريم
٢ - الإبداع في مضار الابتداع — على محفوظ ط دار الاعتصام
٣ - إحياء علوم الدين — الغزالي المتوفى ٥٠٥ هـ ط دار المعرفة
٤ - الأركان الأربعة — الندوي
٥ - الاعتصام — الشاطبي ٧٩٠ هـ ط تصوير دار المعرفة بيروت
٦ - إقامة الحجة — اللكنوي المتوفى ١٣٠٤ هـ ط الأصيل بحلب .
٧ - البحوث الإسلامية - مجلة — الرياض
٨ - تحفة الأحوذي — المباركفوري ١٣٥٣ هـ ط المدني
٩ - الترغيب والترهيب — المنذري ٦٥٦ هـ ط تحقيق محي الدين عبد الحميد
١٠ - تفسير القرآن العظيم — ابن كثير ٧٧٤ هـ ط الشعب
١١ - التفسير السياسي للإسلام — الندوي ط ندوة العلماء - الهند -
١٢ - تنوير الحوالك شرح موطأ مالك — السيوطي ٩١١ هـ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر .
١٣ - حجة الله البالغة — الدهلوي ١١٧٦ هـ ط تحقيق سيد سابق
١٤ - حضارة الإسلام - مجلة — دمشق
١٥ - الجامع لأحكام القرآن — القرطبي ط دار الكتب المصرية

١٦ – جامع الأصول	ابن الأثير ٦٠٦ هـ ط تحقيق عبد القادر أرناؤط
١٧ – جامع العلوم والحكم	ابن رجب ٧٩٥ هـ ط دار المعرفة ببيروت
١٨ – جمع الفوائد	الروداني ١٠٩٤ هـ ط المصرية والهندية [١]
١٩ – الدر المنثور	السيوطي ٩١١ هـ ط المكتبة الشعبية .
٢٠ – خصائص التصور الإسلامي ومقوماته	سيد قطب ١٣٨٧ هـ
٢١ – رد المحتار	ابن عابدين ١٢٥٢ هـ ط تصوير بولاق الأولى
٢٢ – رفع الحرج في الشريعة الإسلامية	عدنان محمد جمعة
٢٣ – روح المعاني	الألوسي ١٢٧٥ هـ ط دار إحياء التراث العربي
٢٤ – السيرة النبوية	ابن كثير ٧٧٤ هـ ط البابي الحلبي
٢٥ – صحيح مسلم	الإمام مسلم ٢٦١ هـ ط البابي الحلبي
٢٦ – العقيدة والسلوك	الندوي ط ندوة العلماء ، الهند .
٢٧ – فتح الباري	ابن حجر ٨٥٢ هـ ط السلفية .
٢٨ – فتح القدير	ابن الهمام ٨٦١ هـ ط تصوير دار إحياء التراث العربي .
٢٩ – في ظلال القرآن	سيد قطب ١٣٨٧ هـ ط دار الشروق
٣٠ – فيض القدير	المناوي ١٠٣١ هـ ط المكتبة التجارية الكبرى

---

(١) ملاحظة : جُلُّ ما أحلته على كتاب جمع الفوائد ، فعلى الطبعة المصرية ، وما كان منه على الهندية فقد بينته في محله .

٣١ - القاموس المحيط الفيروز آبادي ٨١٧ هـ ط الحسينية .
٣٢ - كشف الخفاء العجلوني ١١٦٢ هـ ط - حلب
٣٣ - العبادة أحكام وأسرار عبد الحليم محمود ١٣٩٨ هـ
٣٤ - العبادة في الإسلام القرضاوي ط مؤسسة الرسالة
٣٥ - العبودية ابن تيمية ٧٢٨ هـ ط المكتب الإسلامي
٣٦ - المجموع النووي ٦٧٦ هـ ط دار العلوم للطباعة
٣٧ - مدارج السالكين ابن القيم ٧٥١ هـ ط دار الكتب العلمية .
٣٨ - مرقاة المفاتيح ملا علي القاري ١٠١٤ هـ ط أصح المطابع بالهند
٣٩ - المغني ابن قدامة ٦٢٠ هـ ط الفجالة الجديدة
٤٠ - المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم المودودي
٤١ - الموطأ الإمام مالك ١٧٩ هـ ط تعليق محمد فؤاد عبد الباقي
٤٢ - نظام الإسلام - العقيدة والعبادة - محمد المبارك ١٤٠٢ هـ
٤٣ - هذا ديننا محمد الغزالي .

☆ ☆ ☆

٥ - فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

صدر للمؤلف

١ - سفيان الثوري ط٣

٢ - دراسات في الإختلافات الفقهية ط٢

٣ - العبــادة ط١

International Press

٥ جمال الناهد — مدينة الصحفيين ت ٨١٤٤٢٥٩

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة ص.ب : ١٦١ غورية ، ت : ٩٣٥٦٤٤
حلب ص.ب : ١٨٩٣ ، هـ : ١٧٧٦٤
بيروت ص.ب : ١٣٥٣٣٧